الطبعة الرابعة

رواية

لي أنا أوّلاً

الجوهرة الرمال

t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَـاد،
الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

ترتيب وتصميم: **أشرف غالب.**

t.me/twinkling4

الإهداء

لـ (زر الحذف) الذي كان شاهداً على كل مخاوفي وبكائي وجنوني

ها أنا فعلتها أخيراً و(تجاوزتك)

هنالك أناس يعيشون بيننا دون أن نشتم رائحة خبثهم

يصنعون دوائر وهم حولك دون أن تنتبه لهذا

كل دائرة كفيلة بأن تجعلك تحمل هوية الموت

لا تفكر بالبحث عنهم

فكر بالخلاص..

تنويه..

إن لم تكن قرأت (أنا قبل كل شيء) فأعد الكتاب للرف

ستتعرف عليّ وربما تحبني لكن لن تشعر بي ولن تصدقني

هنا حكاية مبتورة (جسد) بقي رأسه عالقاً هناك برواية سابقة..

إلى الخمسين ألف رسالة التي وجدتها بصندوق بريدي..

لقد وضعتموني بمأزق الكتابة من جديد..

الحكاية التي نهرب منها نجد أننا نكتبها ونشير إليها ونقرؤها

لنصدق أنفسنا ونصنع أنفسنا ونستعيد بناء أرواحنا التي همشها الآخرون

(كل الحكاية أن لكم الحرية بما تقرؤون.. وأنا مكبلة بما أكتب).

أحتاج أن تصدقني لا أن تقرأني..

هل تصدق لو قلت لك لا أعرف كيف أبدأ بالحيث معك..

البدايات متشابهة، بدايات أيامنا وبدايات اعترافاتنا وبدايات وجعنا وحتى بدايات صمتنا، كل شيء يسير بطريقة اعتيادية وكأن الأوقات متشابهة وكل الأحداث تأخذ مكانها دون أن تضطر ولو لمرة واحدة أن تجرب لعبة الكراسي؛ أن تلتف حولها وتتسابق للجلوس لعل كرسيا واحدا يبقى فتتنافس للحصول عليه..

لقد كنت ألعبها كثيراً ولطالما أبطأت بها لتحظى إحدى أخواتي بهذا الكرسي الأخير، ربما التنازل من أجل الغير أصبح عادة منقرضة وخصلة مندثرة نبحث عنها بزوايا الأنفس ونحاول نبشها بطرف حاد لتأتي مخدوشة وغير كاملة..

الأحداث ولعبة الكراسي كل الكراسي كافية لكل الأحداث اليومية التي تحدث لي، حتى صرت أمارس يومي بغير إرادة، كل أعضائي تفعل الشيء ذاته من تلقاء نفسها..

شهر واحد يفصل بين وفاة محمد ووفاة أمي..

وشهر واحد يفصل ما بين وفاة أمي وزواج والدي..

هناك دائماً من يقرر أن يعيش لنفسه ولو كان يسير فوق أجفاننا المتورمة حزناً وقلوبنا المنتفخة بالفقد وأصواتنا التي بحت بالبكاء والدعاء..

لم يكن شيء غريبٌ قد حدث، فلا أعرف منذ متى ووالدي يستمر بالزواج من الصغيرات والشابات وأيضاً الكبيرات،

ألم أخبركم أنه لا يزال يبحث بين جيوب أرحامهن عن ولد ذكر..!

فماذا بعد فقد محمد!

أظن أن البحث صار مضنياً والركض صار لهثاً.. هناك خوف يسكن والدي، هناك قبلية تكبر معه.. هناك مجتمع لا

يستطيع الفكاك منه

مجتمع يعيشه وحده.. ويوهم نفسه به..

مات محمد شابّاً ولم يترك خلفه أي ذرية وهذا ما زاد الأمر سوءاً على والدي وسعيه جاهداً لتخليد اسمه.. لا أعرف من البطل الذي ينوي والدي إنجابه فلقد حصل على ولد أخيراً وهو بعمر السبعين بعد محاولات عديدة للإنجاب والتي تنتهي عادة بالطلاق..

أعيش بمنزل نصف غُرفه خاوية، صار عدد المستودعات يفوق عدد الأسرة للنوم.. كل الغرف مشرعة وكلها صالحة للنوم لا للأحلام، الغرفة الوحيدة التي كانت مغلقة بما فيها ولم يحرك منها شيء وكأنها تحتفظ بعبقها هي غرفة أمي.. مسبحها ومصلاها مصحفها المغلف بقطعة مخمل خضراء عليه نقوش ذهبية، حناء شعرها ومقص أظافرها، ثيابها المعدودة المعلقة وحجاب صلاتها.. أدراجها الفارغة إلا من صور طفولتنا وبعض الفواتير التي تحتفظ بها للضمان ولم تستخدمها بيوم، تحتفظ بكل القصاصات التي تجدها لعل أحدنا يحتاجها ولم يسألها أحد عنها يوما، لها درج طولي ضيق تحتفظ به بعطر واحد ومخمريه برائحة المسك والزعفران التي كانت تعتق جدائلها به. غير أني لم أجده بعد حادثة وفاة أخي وكأن العطر هو حياة وهي ما عادت ترغب به. هناك صورة لجدي معلقة بالحائط ببرواز نحاسي عريض ومسمار صدئ مائل يحملها، كانت تشكو له كثيراً وتظن أنه يسمعها حينما يميل البرواز من ثقله وتعيده هي إلى اتزانه من جديد.

ثم تكفكف دمعها وتعد جدي أن لا تشكو مرة أخرى وأن لا يميل البرواز حزناً.. تنام وكعادتها تغص بحديث لم تتفوه به بعد.

ها هو بقي معلقاً متزناً بصورة جدي وشاربه الذي يغطي

شفتيه ونظرته الحادة وعقاله العريض، وأمي رحلت وأغلقت الباب والشكوى للأبد.. أظن أنه يشتاق لشكواها يحدق بالمكان ويحاول أن يميل بالبرواز لعلها تعود لتعيده إلى الاتزان من جديد...

أظن أن كل الجدران تحتفظ بصداها.. هذه الغرفة الوحيدة التي أزورها فقط لأتنفس.. لأشبع روحي منها، ومن يشبه رائحة أمي رحمها الله.

من الموجع أن تقول (أمي) ثم تقول (رحمها الله) نعم الرحمة للحي لكن طالما نذكرها بعد سيرة الأموات فهي موجعة ذاك الوجع الذي لا يشعر به إلا من قالها ثم تنهد..

كنت أنادي أمي بصوت عال ولا أنتظر الرد لكن خشيت أن تتعفن روحي إن لم أنادها..

لقد ماتت حزناً على أخي محمد بعد ما فقدته بحادث سيارة ابتلع أجزاءه ولم يدفن كاملاً.. لم تمت أمي حزناً وحسب بل كمداً وغيظاً وقهراً.. كيف لقطعة حديد أن تلوك جسد ابنها؟ كيف لعمود إنارة صلب أن يبتلع مقدمة السيارة، وكيف لمتهور طائش أن يتسبب بهذا، كيف للقدر أن يأتي لها بخبر موت ابنها وهي تستمع له كاملا دون أن تقول له أنت تكذب أو حتى تطلب منه أن يصمت! أو تقوم وتترك المكان لعل الحديث ينتهي ولعل القدر يغير شيئاً.

مات حبيبها بعيداً عنها بمدينة تبعد عنا سفراً لساعات طويلة.. دولة أوربية قد ذهب إليها بعد أن سعى جاهداً للحصول على منحة من عمله تؤهله للحصول على شهادة سترفع من كفاءته الوظيفية، يومها جاء يبشر أمي بهذا.. لكن رد أمي جاء بالدمع والصمت.. لم تعتد أمي فراق محمد، ولم تعتد رؤيته كل يوم أيضاً.. فهو له حياته، زوجته ومنزله المستقل، كان يطل نصف ساعة بنصف حديث يقلب هاتفه

ويكتفي بالإجابة على أسئلة أمي، كيف حالك وهل تناولت وجبتك اليوم وهل نمت مرتاحاً، وكأنه ابن خمسة أعوام تنظر له برحمة وخوف وحب لا ينتهي، وهو يرى أنه كبر جداً على مثل هذه الأسئلة.. يجيبها بتبسم ويتعذر بالأشغال التي تنتظره ويمضي مسرعاً باتجاه مشاغله وارتباطاته وأصدقائه.. لكنه كان حيّاً كان هنا كان معنا هذه الكلمات الأخيرة التي قالتها أمي قبل وفاتها.. حينما كنت أحاول جاهدة أن أنتزع شبح الحزن الجاثم على صدرها وأهون عليها فراقه.. كان هنا يا ورد، ليته يعود ولن أسئلة مرة أخرى فقط أنظر إليه.. وتبكي..

ولادة.. وحياة

من يخبرهم أن لقلوبنا جيوباً تشبه الأرحام يكبرون بها ونعتصر لمخاضهم ببكاء وفرح..

تهبنا الحياة أبناء من رحمها.. فلقد وهبتني ابنتي المشاغبة التي تضطرني بكل مرة لأعتصرها بأحضاني وأشتمها ولا أنوي فكاكها.. هل جربت أن يكون لك طفل أنجبه قلبك؟!

من يخبرهم أن لقلوبنا جيوباً تشبه الأرحام يكبرون بها ونعتصر لمخاضهم ببكاء وفرح؟

لقد عشت كل ألم المخاض.. لقد تركت حنان بيدي آثار وجع الطلق كانت تنزف أرحامها، وأنا تنزف يداي ورقبتي وصدري.. لقد كانت من وجع الطلق تغرز أظافرها بيدي وتتشبث بصدري حتى إنها تعضني وجعاً، كانت تصرخ وأنا أصرخ مشهد مضحك مبكٍ.

حنان أختي التي تعاني من التوحد -لقد أخبرتكم عنها سابقاً-.. تلك البريئة التي ساقها والدي كصفقة بقاء لجارنا أبي فهد الذي يقارب والدي بالعمر والذي مات بعد زواجها بأشهر قليلة، لقد كان جسد حنان هو اللعبة الشهية التي يزاولها هذا العجوز كل ليلة وهي لا تدرك ماذا يعني زوج ومعاشرة، كانت تخاف من قُبلة والدي بيوم عيد، ورغم هذا ألبسها والدي ثوب الزفاف وساقها كنعجة شهية للذبح ممتلئة بالدهن واللحم تصلح للأكل لا لشيء آخر!

لكن هذه النعجة أقصد أختي حنان كانت قادرة على الاحتفاظ بكائن بشري بداخلها وهذا ما جعلني أواجه تحدياً آخر أواجه به مرض حنان التوحدي وتقبلها لبطن منتفخ يكبر شيئاً فشيئاً.. لطفل يتحرك وتميل بطنها يميناً ويساراً وهي تضربه وكأنها تحسبه انتفاخاً مؤلماً وتود الراحة من هذا تود الخلاص...!

الجميع كانوا يودون الخلاص من هذا الجنين.. كانت عمتي زكية تدس الأعشاب بوصفات شعبية داخل طعام حنان، وما كنت أكتشف هذا لولا الله ثم نزيف تعرضت له حنان أثناء

حملها، لأذهب لعمتي أسألها عن السبب لعلها تعرف شيئاً فلا أنا ولا عمتي سبق لنا تجربة الحمل، ولكن بحكم سنها والمجالس التي لا تخلو من مشكلات النساء بالحمل والتي تعلمك أحياناً، قالت لي عمتي بدم بارد إنها من فعلت هذا! صرخت بوجه عمتي التي كانت تردد لي صريحة:

- أختك مجنونة كيف بتربي طفل!

وأقول:

- أنا...

مجنون آخر يحاول النجاة بالجنين.

كنت أحافظ عليه وكأني أتبنى طفلاً سماويّاً ملائكيّاً وهبتني إياه الحياة لأتصالح مع كل الظروف حتى مع عمري الذي ركض مسرعاً ولم يحالفني الحظ بالزواج وتجربة الأمومة.

بالواقع أشعر أني أنتظر كائناً فضائيّاً لا أعرف هل سأحظى به كاملاً أم كسرت له أختي ضلعاً، أو فقأت له عيناً أو أحدثت خللاً بدماغه.

الأمر كان جهاداً نفسيّاً..

معركة خضتها لتسعة أشهر.. وأنتظر النصر.. الفرج بمعنى آخر..

وعد

هي ابنة قلبي لقد أخبرتكم من قبل كيف تنجب قلوبنا أطفالها.. لقد ولدت بين يدي لقد تلقفتها من رحم أمها وضعت كفيّ تحت كفي الدكتورة، كنت أخاف سقوطها وربما كانت اللهفة تدفعني، لهذا حملتها مسرعة بدمائها ومائها و صراخها لصدر أختي حنان لكنها كانت تغط بنوم عميق بعد رحلة طلق دامت لساعات، هنا رفعتها وشممتها وضممتها حتى قبل أن تغتسل أدخلتها بجيب صدري لأشعر بحرارة جسدها الصغير

الطري، تفتح عينيها كشق صغير

وتصيح بفم دائري وشفاه مزرقة، وجهها أشبه بقطعة من الجنة، لها رائحة جعلت قلبي يخفق بسرعة أمسكت يديها ثم أصابعها أفرق بينها أتحسسها أقربها من شفتيّ وأنفاسي وأشتمها، ما كنت أنوي أن يأخذوها مني لتجهيزها كانت تلك كانت اللحظات الأشهى عندما التقيت بها، لكنهم فعلوها وأخذوها مني لتجهيزها لغرفة الحضانة وفحصها، نسيت حنان وعرقها المتصبب وشعرها الملاصق لجبينها وشفتيها المتفطرتين بالعطش والتعب، كنت مشغولة بالمراقبة من بعيد، الماء وهو يصب على رأس صغيرتي من صنبور بعنق طويل وحوض أبيض أسفله صغير، خطفت قلبي وانتباهي أيضاً، وأردد بصوت مسموع هل الماء دافئ؟.. ثم أسأل الممرضة اللطف وهي تغسل شعرها الأسود وتنظفه، أوصيتها أن تتعامل مع أضلعها الصغيرة برفق وهي تلفها بغطاء قطني زهري، وتزنها فوق سرير حديدي صغير ليشير عقرب الميزان إلى الرقم ثلاثة كيلوغرامات وستين غراماً

- يا ويلك يا حنان أين يذهب كل الأكل الذي أطعمك إياه!

كنت أريدها بوزن أربعة كيلوغرامات، لكن لا بأس سأفعلها بنفسي وأطعمها لتكون كتلة من الدهن الشهي.

تعصب الممرضة رأس ابنتي بالمتر لتقيس محيط رأسها وأردد لمَ كل هذا التعذيب ألم ينتبهوا لبكائها وبكاؤها يخرج من ثقب قلبي...!

أول مرة شاهدت أصابع أقدامها وهي تشق المهاد كنت أزفر ابتسامتي وسط دموع عينيّ وأضع يدي لأخفي هذا الشغف والفرحة..

لقد قضيت نصف ليلتي وأنا أراقبها من خلف شباك زجاجي عريض معها العشرات من الأطفال من ملائكة الرحمة،

لكن كنت أشعر أن قلبي ينبض بجزء واحد فقط من كل هذه المساحة، وكانت عيني تبتسم فقط لهذا السرير الزجاجي الصغير والذي يحوي جسد وعد، لقد وقفت طويلاً حتى أسدلوا الستائر بعد انتهاء وقت الزيارة، لم أكن زائرة ولا متطفلة كما ظنوا، لكنني أم والله وحده يعلم المعركة التي خضتها من أجل بقاء هذه الصغيرة قبل أن تأتي للحياة..

لا أنسى الوقت الذي خرجنا به من المستشفى وأنا أحملها وأضمها لصدري وطوال الطريق أنظر لأنفها الصغير المتورم بمساماته البيضاء المتناثرة فوقه، خصلات شعرها المنسدلة خيوط فتنة بل ريش ناعم بأطراف متطايرة على جبينها، وشفتاها المدفونتان بين وجنتيها المنتفختين الملونتين بالحمرة، لها أذنان صغيرتان يغطي الشعر معظمهما.. نسيت الطريق والرصيف والشارع.. نسيت أن أعد النخلات وأعمدة الإنارة كما أفعل بكل مرة.. نسيت أن أصافح المتسولة التي تقف عند الإشارة الضوئية منذ أعوام وهي تقول بكل مرة متسولة مستحلبة عواطفنا:

- عندي طفل رضيع

وكأنه لم يكبر أو حتى يتوقف عن الرضاعة..

وبكل مرة أصدق كذبتها وأتعاطف معها.. وأعطيها ما يكفي لإرضاع هذا الطفل أسبوعاً كاملاً وأقول لها:

- كوني أمّاً صالحة وعودي له

لقد طرقت نافذتي عند الإشارة وكما اعتادت أن تفعل لكن لم ألتفت لها لأني أصبحت أمّاً الآن، وسأكون صالحة بمشيئة الله.. ولو كنت أمّاً لم تلد..

وعندما ألحت.. فتحت النافذة ورجوتها أن تدعو لصغيرتي لعل لديها ذخيرة عند الله..

لقد تمتمت بدعوات لم أسمعها ربما المبلغ لم يكن مجدياً

لترفع صوتها!

أنظر لحنان التي تتكئ على نافذة السيارة وتدخل أصبعها بأنفها ومرة تحك رأسها وتحدق للأعلى كالعادة.. غير مدركة لما حصل غير مبالية بما يحصل.

هنيئاً لنا يا حنان لقد نجحنا..

ها أنت أنجبت وعد

وأنا سأفي بالوعد وكما كنت أمّاً لك رغم عمرك الذي يكبرني.. سأكون أمّاً لوعد رغم أني لم أنجبها.

تضطرنا الأيام أحياناً لنعيش بوسط ساعة لها عقارب طويلة لا يوجد بها عقرب صغير للثواني لأنه سريع وربما أتعثر به.. تصالحت مع العقارب أخيراً وصرت أزن نفسي أعرف متى أمد ذراعي حينما تنتصب على الثانية عشرة ومتى أحنى ظهري جيداً حينما تكون بالمنتصف..

الاستمالة يميناً ويساراً، لقد صرت لينة جدّاً وما عاد شيءٌ قادراً على كسري

كل المواعيد الطارئة أجد لها مخرجاً أتحايل على عقاربها وعلى مواعيد أختي حنان وابنتها الصغيرة، المواعيد التي تضعك بمأزق مع وقتك وتجبرك على احترام وقته.. أحترمها ولكني أجد حيلة دائماً لأكون قادرة على الالتزام به

وأيضاً مواعيد علاج عمتي زكية والتي تعاني الخرف منذ أعوام.. لقد مات كل الزرع بمنزلنا.. كل نباتات الظل التي تعاود سقايتها مرتين باليوم حتى ماتت ارتواء..

ليس كل موت هو عطشاً، بعض الموت يفيض عن حاجتنا للحياة..

كم مرة كنت أشتم رائحة الأرز المحترق بالقدر الذي يظل يجاهد معانقة النار حتى يستسلم للاحتراق أخيراً، بعد أن

تنسى أن تطفئ تحته وتصر أنها فعلت هذا، كان لزاماً عليّ أن أصدقها وأكذب رائحة الأرز المحترق وأيضاً مذاقه، لقد كنت آكل الملتصق منه وأدعي الشبع فقط لأن حفظ النعمة سر دوامها. وربما لأني أصبحت أستلذ به مؤخراً وأسعد عندما أشم رائحة الاحتراق بكل مره.

اعتادت عمتي أن تشي بكل حديث وتدعي معرفة كل شيء هذا ما سببه الخرف المبكر لها.. ما عاد لنا جيران ولا أصحاب، الجميع كانوا ينفرون خوفاً من أن تلتصق بهم حكاية لم يفعلوها، حتى الأطباق التي تصل لنا وقت الظهيرة مع صبية الجيران افتقدتها.. لقد كنت بكل مرة أتذوق مزاجيتهم وأعرف إن كانت جارتنا أم عادل بمزاج جيد اليوم أو أن أحدهم عكر صفوه وجعلها تنسى أن تضيف الملح للطعام ليجيء باهت لولا الألوان الصناعية وشرائح الليمون التي تضيف مذاقاً شهياً للعين فقط، وأيضاً أم أبراهيم والتي اشتقت جداً لمذاق الحلوى المحشية بالتمر يغطيها رذاذ السكر الشهي والتي اعتادت أن تعدها كل نهاية أسبوع حين تزورها ابنتها وحفيدها الصغير الذي لم يميز طعم الحلوى بعد.. نعم أفتقدها ولم يأت أحدهم ليأخذ الطبق الزجاجي الخاص بهم منذ أشهر، بعد أن ادّعت عمتي طلاق ابنتهم.. عمتي لا تكذب ولكن الأحداث كانت تسير وكأن الطلاق سيقع بالفعل ربما خوف أم أبراهيم من هذا جعلها تترك الطبق وأيضاً هذا الفأل معه.

ما عاد هناك من يطرق بابنا إلا فهد

وما عاد هناك من يستخدم الباب الخلفي إلا هيفاء زوجة والدي..

كنت أظن أن للأبواب وظيفة واحدة وهي أن تحمينا من دخول الغرباء بغتة.. ولكن وجدت أن الأبواب قادرة على ستر عورة أسرارنا ألا تخرج والحمد لله أنها غير قادرة على قفز الحواجز

والأسوار..

ما عاد هناك خصوصية نلتف حولها

فعمتي زكية لا حول لها ولا قوة ولكن هي إرادة الله أن يداهمها الخرف لتفوح بكل ذكرى أوجعتها وكأنها تتنفس الآن بعد خذلان والدي لها وحرمانها من الزواج بعيسى وقصة عنوستها التي راحت هي وعمرها وشبابها ضحيتها وبقيت تناجي غصن ريحان وتبكي ذكرى لم تعشها يوماً كما تمنت.. لا أعرف ما الذي أوى إليه مصير عمتي.. التي لا تزال رغم المرض تحتفظ بقوتها وشخصيتها وهيمنتها وسيطرتها... كنت أترك لها كل شيء وأراقبها من بعيد فقبل المرض وقبل الخرف عمتي هي من راعتنا بعد وفاة أمي وزواج أخواتي بقيت وحدي مع عمتي وكما وعدتها أن أبقى ابنتها البارة التي لا تغادرها.. وكانت هي القائم على متابعة شؤون المنزل

كل أخواتي ما عدن يأتين لزيارتنا بعد مرض عمتي.. حتى الأعياد غير قادرة على جمعنا من جديد

وكل أسبابهن الواهية كانت تعلق على جبين عمتي أنهن لا يطقن مجالستها فالخرف يؤذيهن وسبب تفككاً بروابط أسرتنا

هذا ما تدعيه أخواتي ولكن دائماً أرى العكس

لا أحد يعرف عمتي زكية كـ أنا

فوحدي من يعيش بداخلها ووحدي القادرة على تصديقها بكل ما أوتيت هي من خرف.

الحكايات التي تنتهي.. هي تبدأ من جديد

وبطريقة ما..

هناك زهرة تنبت بطينة روحي.. أشعر بها كلما تحسست صدري.

ولادة وعد لم تزهر قلبي وحسب بل جعلتني أتصفح كتاباً قديماً كنت قد دفنته بزوايا الروح ونسيته.. كتاباً معنوناً بالحب وكل ورقة تحكي حكاية انتهت سريعاً، لقد نسيت أن أتحدث لنفسي عنه كنت أراه حلماً وطيفاً وأنهض مسرعة من فراشي، لا أتعوذ ولكن أحضنني.. أخاف أن يدخل الحب قلبي من جديد، أخاف حكاية عمتي زكية مع عيسى وكيف عاش بداخلها للأبد وقتل كل شيء بها كان قابلاً للحياة.. كيف جعلته وجهة قلبها وقبلة مشاعرها وذاكرتها التي لا تنوي الخلاص منها..

خفت أن تكون وعد لي كمثل غصن الريحان لعمتي زكية

كلما اشتاقت لعيسى دست الغصن بين أنفاسها ودمعها وتنهداتها.. الريحان الذي كان يزرعه عيسى بحوض منزلهم وعمتي زكية ترعى أمه، وبنظراتها ترعاه وتقطف كل يوم ريحانة لتحتفظ بها حتى تذبل وتعاود الكرة تعاود سرقتها الأشهى... لأن عيسى هو من زرعها وكأنها نبتت من طين كفيه!

وعد

هي أخت فهد غير الشقيقة.. يجمعهما الأب نفسه ولأن الأب قد مات قبل أن يعرف بحمل حنان، صار فهد هو الراعي وهو المسؤول عن أخته، لم نسأله نفقة فلا تزال حنان وأنا وكل أسرتي ننعم بالإرث الذي حصلت عليه حنان بوفاة زوجها.. لقد كانت صفقة رابحة لوالدي صالح الذي طور من شركته وتوسع بها حتى صار يملك منها فروعاً عدة ويشهد لنجاحها المدينة بأكملها... ويطمح والدي للتوسع على مستوى الوطن العربي كاملاً، هو يسعى.. يسعى للحد الذي يجعلنا لا نلتقي به..

بالمقابل لم يستطع أبناء أبي فهد أنفسهم مواصلة الاستثمار بشركة والدهم.. لقد تقاسموها بعد وفاته وأخذت حنان كونها

الزوجة نصيبها، لكن حنان وجدت من يجيد استثمار هذا النصيب، لقد كان والدي عبقريا بالتجارة ذو شخصية حادة مع موظفيه، لم يتغيب يوما ولا يعرف التأجيل، يجازف بذكاء ويستثمر كل الأفكار الشابة المتاحة، يدخل بكل مجال يعتقد أن التجربة به لن تجر خسارة إن لم تنجح.. يعرفه الجميع ويسعى هو لمعرفة الجميع أيضاً فكل معرفة هي مكسب له.

تعلمت منه أن التجارة بحاجة لقلب وعقل..

لقد قلت قلب قبل عقل، أظن أني قصدت شيئاً.. فكر بها ربما تجد جواباً لم أجده أنا بعد، فهذه كلمة والدي التي يكررها دائماً لنا.

جاء فهد أول مرة لزيارة أخته وعد بعد أن أكملت عامها الأول..

طفلة بشهية للحياة لا تعرف الخوف من الغرباء، فلقد ارتمت بحضنه منذ أول لقاء وسقط حبها بقلب فهد.. وهذا ما جعل زيارته لها أسبوعيّة يأتي محملاً بالهدايا يجلس لدقائق ويذهب..

ما عاد فهد يشغل حيزاً بداخلي..

لقد تصالحت مع الحياة..

أهب الحب لكل المارة حتى للرصيف الذي لا يقف عليه أحد.. حتى لشجرة السدر وأغصان الياسمين.. لكل شيء.. بالحب أحيا لا أنتظر

مقابلاً، بقدر ما أنا أسعى أن أعيش بسلام أن أضع يدي على قلبي وأقول له أنت بخير..

لقد انفصل فهد عن هيفاء صديقة الطفولة التي سرقت فرحتي وحبيبي.. لقد تقاسمنا الألعاب والأوقات والأكل.. لكنها أخذت فهد كاملاً.. فالحب لا يقبل المناصفة وأنا أنثى لا

أشطر قلبي لأعيش نصف حياة ونصف نبض.

لهذا اخترت أن أنبض أن تستمر حياتي.. وتمنيت لها التوفيق ومضيت أحمل فهد بقلبي كـ سر لا يعرفه أحد غيري..

لقد انفصل فهد عن هيفاء بعد زواج دام لسنوات أثمر طفلين.. الطفلان اللذان قررا أن يدفعا ثمن هذا الانفصال ودون وعي..

أن تعيش أرواحهما كما قدر لها أن تعيش، أن يحتفظا بأسرارهما الصغيرة ويخفيا دموعهما على الجميع، إن عليهما الآن مصاحبة الغرباء أن يتعلم كل منهما كيف يكون قادراً على حمل نفسه دون مساعدة أحد.

لم أكن أعرف بطلاق هيفاء وانفصالها عن فهد وقرارها أن تتنازل عن حضانة طفليها، لولا زواج والدي منها...

نعم زواجه منها!

كانت حديثة الطلاق لا أعرف كيف لها أن ترمم روحها وتستعد للقاء رجل آخر ليتحكم بجسدها قبل أن ينفك أثر الرجل الذي يسبقه أشك أنها لا تزال تحتفظ بأثر آخر قبلة.

ولأن والدي يبحث عن أرض خصبة تُنبت له ذكراً..

وجد بهيفاء ما يريد.. امرأة شابة قد حدث وأنجبت وأيضاً كانت ذريتها صبية، وهذا ما جعل العرض أكثر إغراء لوالدي.. متى يدرك الرجال أن الأنثى وعاء لا علاقة لها بذكر ولا بأنثى..

لم يسأل والدي نفسه لماذا تأخرت بالحمل كل الفتيات اللاتي تزوجهن من قبل؟!

وهل الجميع لديهن السبب ذاته! والجرم ذاته ليكنَّ تحت بند مطلقة بمجتمع أعرج بالعادات والتقاليد؟!

هل أصبح من السهل شراء امرأة!

ومن السهل التخلي عنها

هذا ما يحدث مع والدي يدفع مهراً عالياً ويطلق بمهر آخر وكأنه يبرئ ذمته ويغسل أموالاً تضخمت من بعد بيعه ابنته حنان لرجل عجوز!

لكن ذاك العجوز كان قادراً على أن يُنجب.. وهو لا!

لا يزال يبحث بين أكياس الأدوية والمنشطات والمقويات عن حيوان منوي واحد يخلد اسمه..

لا خلود لا بقاء جميعنا للفناء..

متى ينام والدي وهو قرير العين هانئ البال؟!

مضى عام وأكثر

وأنا بكل صباح أستقبل وجه هيفاء.. ما عادت صديقتي، بعض الأصدقاء عندهم قدرة عجيبة على التحول لأعداء وبدون مبرر واضح، هو يكرهك لأنك أنت بما أنت عليه، وحتى لو كان لديه كل شيء لكن شعوره بالنقص يعني أن لديك شيئاً لا يملكه هو..

لقد توسدت هي حضن من أحب

حضن والدي وحضن فهد

ماذا تريد أكثر من هذا!

بكل صباح أشتم رائحة فهد منها وتحرك بداخلي ذكرى خامدة، نسيتها تماماً.. حتى بعد طلاقها أشعر بـ كفي فهد عندما أنظر لكفيها ولا أنسى لحظة زفافهما وكيف كان يحضن أصابعها.. يقبض عليها ويعلن ملكيته لها

أنظر لكفيها وأقلب كفي.. لم تكن جميلة بالقدر الذي يجعله يختارها لم تكن كفي مخروطة الأصابع ومبرودة الأظافر ومصبوغة بلون مناكير فاتن، لقد كانت ممتلئة وتكاد تكون لها الطول ذاته لا فرق بين السبابة والإبهام لكن كانت دافئة بالحب الحقيقي الذي كبر منذ بيت الطين الذي بنيناه أنا وفهد معاً، عندما دسست يدي بوسط الرمل وهو يربت عليها ثم يحفر ليخرج كفي فينفض عنها الرمل ويمسكها من جديد ونكمل اللعب.. كانت تعجبه وربما ظننت هذا..

كانت هيفاء قابلة للزواج حينها، لم تفقد شيئاً منها، كانت كاملة مبصرة بينما أنا عمياء وليس هناك مبصر يتزوج بعمياء!

وعندما عاد لي البصر بعد ضربة موجعة سببها فهد أيضاً كان أول حفل وأول أنوار معلقة وأول عيد يحتفي به نظري العائد، كان زواجه من صديقتي هيفاء لقد أخذ كل شيء.. حتى الابتسامة التي كنت أدخرها لمثل هذا اليوم.

وجهه الوضاء وغترته البيضاء ومشلحه الأسود على أكتافه العريضة، عيناه عندما وقعتا على عينيّ.. عندما كنت أقف أمام امتداد عينيه أغطي وجهي وقد اكتفيت بسرقة النظر من شق صغير سمحت لعيني اليمنى أن تطل عليه..

عيني التي شهدت أول دمعة لها بعد أن عاد إليها البصر وأول صدمة بالنور..

لقد كان يضحك وأنا أبكي.. يتنفس وأنا أزفر

كانت النظرة الأخيرة والدمعة الأخيرة التي سقطت من أجل فهد...

وانتهت الحكاية

وعندما أقول انتهت أنا أعي جدّاً ماذا يعني هذا...!

٨:٠٠ صباحاً

- صباح الخير يا عمة زكية

- من أنت؟

- أنا ورد

- من ورد؟

- عفيفة يا عمة أنا عفيفة

كان لزاماً عليَّ بكل مرة أوقظ بها عمتي زكية أن أذكرها بنفسي.. لا تعرفني بورد هي تتذكرني بعفيفة الاسم الذي اختاره أبي وربما لأنه اسم والدتها أعني جدتي، لهذا هو باقٍ بداخلها وغير قابل للنسيان..

بكل مرة أقول عفيفة تضم كفيَّ وتقربها لوجهها وتقول:

- وين كنت يمّه؟ أنا أدور عليك

أنظر لعينيها مباشرة كيف تحيط بهما التجاعيد، وقد ذبلت كل الحكايات وبقيت حاجتها للأم باقية.

كنت أخاف على عمتي زكية من ذاكرتها التي تفوح دونما سيطرة وأسرارها التي بقيت معلقة بصدرها لأعوام، صارت حديثاً للمرايا لزوايا الغرف لدورات المياه وحتى للزرع والنخل الذي يحيط منزلنا.. تحكي لكل شيء عن كل شيء..

كنت أستمع لها جيداً فهي تظن أني أمها ووجب عليّ أن أنصت لها..

- يمه عفيفة

- سمّي يا عمة

- أنت أمي صحيح؟

لتتثبت من أنها لم تخطئ فبعض الأسرار وحدهن الأمهات من ينلن شرف سماعها حتى وإن كانت حكاية صغيرة..

تقولها وهي تضع كفها المرتجف على صدري وتقول:

- احفظي ها لسر هنا

وتبدأ تعيد حكاية لا أفهمها،

حكاية مر عليها زمن وحكاية حديثة العهد وحكاية لم تولد حتى هذه اللحظة، ولكن عمتي كانت تريد إخباري بشيء ما.. شيء بعيد عن كونها خرفة.

سر دفين سيقلب هذا المنزل ويكشف عن جريمة حصلت.. لم أسعَ لربط خيوط الحكايات لكن أفكر جديّاً أن أجمعها لعل هناك عقداً سيلبسه أحدهم تحت بند الفضيحة والجريمة!

هادئة

لا أشعر بشيء

باهتة حنجرتي

للمرة الأولى أتحسس صدري وأشعر أن هناك شيئاً سقط مني

شيئاً تركته بمكان لا أعرفه

أشعر بفراغه..

لكن لا أفكر بالعودة والبحث عنه!

الساعة الآن العاشرة مساء هذا الوقت أستطيع أن ألتقي بنفسي

أصعد لغرفتي بعد أن تنام عمتي زكية وصغيرتي وعد

ألم أخبركم أن عمر وعد الآن تسع سنوات؟ فتاة ذكية ومتفوقة.. تحب أمها وتعرف أنها من أنجبتها ولكن تصر أن تناديني ماما وتنادي أمها حنان!

لم تنم بحضنها طويلاً، بعد الحادثة الأخيرة لم أسمح لها بهذا.. كان من المؤسف أن أمنع حنان أن تمارس حقوقها كأم، لكن كانت تدس الصغيرة وعد تحت الغطاء لتسكت صراخها وربما تعاملها مثل عرائس القطن فلا تمانع أن تحملها من ذراع واحدة أو تلقي بها بعيداً بعد أن تعجز عن إسكاتها أو إيجاد حل لبكائها..

كنت أبكي كثيراً عنما أرى صدر حنان وقد امتلأ بالحليب ولا تستطيع إرضاع ابنتها، لقد حاولت أن أساعدها وكذلك عمتي زكية، لكن بلا فائدة تذكر.. فلطالما نامت حنان مبتلة ثيابها بحليبها وطفلتها قد أرضعتها بقرة.. أقصد حليباً مصنعاً..

لكنها تنام شبعة على كل حال،

وبعد أن تخطت عمر الرضاعة صارت تنام على صوتي

وغنائي، لم أكن ذات موهبة لكن وعد كانت جمهورا جيدا يشجعني وينصت لي وربما تهرب للنوم لإسكاتي لكن هي تنام على أية حال..

بكل الأحوال ننام.. فالأحلام عالم قادر على أن يفاجئنا ويبهرنا.

هذا الوقت لي..

مرت أعوام وأنا أكتب بورق وقلم أزرق ناشف.. كان يخذلني الرصاص حينما يختفي بعد مرور الوقت، والأقلام السائلة كانت تبزق حبرها كلما كتبت عن الحب وربما بكت فملأت الصفحة حبراً..

القلم الناشف هو الوسيلة الأسلم والتي تحتفظ بحرفي كما هو.. لدي جهاز حاسوب الآن أفكر كثيراً أن أتصفح الإيميل الذي وضعته منذ أعوام برواية سابقة.. ربما أجد أحدهم ينتظر أن أطل برأسي عليه وأرد التحية وربما لا أجد أحداً.. أفكر أن أرسل لنفسي رسالة الآن من حاسوب آخر فقط كي لا يخيب ظني..

فكرة أن أستخدم هذا الجهاز تبدو مخيفة لي لم أعتد بعد على الرقص فوق لوحة التحكم ثم إن الأحرف متباعدة ولا أملك تلك المرونة لتمكنني من القفز بينها لألحق كل حرف بنقرة عليه أخاف الانزلاق فيكسر كاحل الحرف، ومداواة أحرفنا تأخذ وقتاً.

زر الحذف الذي يخيفني تماماً لقد جربت أن أكتب وأردت حذف كلمة ولكن وجدت أن الصفحة بكاملها عادت بيضاء وكأن لم يكتب بها شيء.. تبدو لي فكرة مجنونة أننا قادرون على حذف كل شيء من خلال نقرة على زر أسود جانبي.. له قدرة عجيبة ومريبة.. أعترف أني أحترمه جدّاً وأخافه.

سأجرب لاحقاً، لعلي أستخدم هذا الجهاز وهذه النافذة

الكبيرة التي تطل منها على العالم يقال إن هناك نافذة أصغر تفعل ما يفعله هذا الحاسوب وهي نافذة الجوال.. ما زلت أستخدم جوال النوكيا هل من أحد يذكره لا يستعمله؟. هيفاء لديها من شركة أخرى متطورة أظن أنها (آبل) لقد قرأت عن قصة كفاح صاحب هذا الاختراع وجهاده مع نفسه لإقناع العالم بأسره، لقد كلفه الكثير من الوقت والجهد والجنون، لتأتي هيفاء وترفع يدها عالياً وهي تحمل الجوال كالمرايا وتضحك وتصور ثم فجأة تتوقف عن هذا لأنها تجاوزت حد الثواني المتاحة لبرنامج يمنحك لسان كلب وآذان أرنب وبمجرد أن تبتسم يخرج لساناً طويلاً ليضيف لك جمالاً وتبتسم أنت وربما يكون الوضع جادّاً بعض الأحيان ولكنك لا تمانع أن يحولك برنامج بهاتف ذكي إلى كلب وربما لسنجاب..

الثواني التي يمنحها لك هذا البرنامج قد لا تكفي لضحكة طويلة فعندما تنتهي هذه الثواني تضطر لأن تتوقف معها، لتبدأ بالتصوير من جديد وتكمل الضحكة التي أوقفتها منذ لحظات!

شيء يثير تعجبي كيف تكون قادراً على هذا، فعمر الابتسامة قصير، كيف لك أن تخلق لها عمراً جديداً وببهجتها نفسها.

أن تحيا بها كاملة أمر يجلب لك الحياة وكما لو أنك ستعيشها كاملة وبكل حب..

لا شيء لدي يقطع هذه الابتسامة ولا اللحظات الجميلة لا عين كاميرا ولا سنجاب أو كلب ألصقه بوجهي ولا أعين متطفلة.. تغزو وقتي.

ليكون لديك جمهور وأنت ساذج يعني لا بد لك أن توظف طفلاً صغيراً إما بصوره وابتسامته أو لتملي عليه سذاجتك ويضحك الجميع إلا ذاك الطفل، لقد كانت تجبر وعد على التصوير بما أنها الطفلة الوحيدة بالمنزل، كنت أرفض دائماً..

فقط لأني أردت لصغيرتي أن تشعر بقيمة ذاتها دون أن تكون كمبارساً لمشهد سخيف.

صغيرتي وعد تخاف من هيفاء وتهديدها بالإشارة والعين،

لا أعرف متى تتخلص من مخاوفها.. متى تعي أن من يشير لك من بعيد هو غير قادر على إيذائك لأنه لم يجرؤ أن يقترب منك أساساً.

لا تشبهي أمك حنان يا وعد وإياك أن تشبهي أحداً..

لك مخاوفك

ووحدك القادرة على تخطيها

كوني كما أنت..

أتكئ على وسادة عمتي زكية نصف اتكاءة يشاركني الملل

كعادة الأوقات المتشابهة.. أقضي نصف يومي معها والنصف الآخر أمارس الحياة ما بين القراءة أحياناً، وأحياناً بين وعد وحنان ومشكلات هيفاء التي تصنعها كل يوم، تجيد طبخ الحدث لتقدمه ساخناً لوالدي الذي يلتهمه سريعاً ويأتي ثائراً يصب غضبه على عمتي زكية التي لاحول لها ولا قوة وأحياناً ينالني الحظ الأوفر، لقد اعتدت هذا.. وكعادتها تواجه كل شيء بصمتها وتنتقم بعد هذا بحكايات تشي بها، بالواقع الخرف من يفعلها.

عمتي زكية لا تتذكر شيئاً ولا مجال للحديث معها عن شيء لأنها بعد دقائق ستحدق بوجهك وتسألك من أنت؟، كأنك شخص غريب عابر جلس بمقهى وشاركه الحديث غريب آخر يتحدثان بكل شيء ويضحكان ويتجاذبان قضية واحدة ويعارضان ويشتمان السياسيين والمقاولين وحتى صاحب المكان.. ثم ينتهي الحديث ويغادر كل منهما بطريق وهو لا يعرف اسم الآخر..

رضيت تماماً أن أكون هذا الشخص مع عمتي. أشرب الشاي معها وأقرأ كتاباً بجانبها وأبعث رسائل مضحكة للجميع وأنا لا أضحك عليها.. أرد على كل الاتصالات وحتى على الخطأ منها وأعتذر له أيضاً.

بالجلوس مع عمتي أجد نفسي، نفسي التي جاهدت وبصعوبة لتحصل على شهادة جامعية ولكن لم تجد من يقبلها للعمل

سوى مركز صحي سأحكي لكم لاحقاً عنه، فعمتي بدأت بالحديث بحكاية أشتم عبقها لأستمع لها وأثق أني سأجد متعة.

لأنها بدأت بالغناء ثم البكاء وعادت لتغني مرة أخرى.. الحب وحده قادر على تحويل عمتي بكل جبروتها لأنثى ضعيفة لا حيلة لها سوى أنها تتحدث للسماء وللغيم.. هذه المرة سيكون مختلفاً عليّ أن أنصت جيداً..

أحب حكاية الحب التي جمعت أمها (جدتي عفيفة) مع والدها فهي تذكر حديث والدتها وتروي على لسانها وهي تتنهد وترجف عيناها بالدمع وكأنها تعيش الحدث معهما!

تقول جدتي عفيفة لابنتها عمتي زكية:

منذ اللحظة الذي جاء بها إلى منزلنا شعرت بشيء بداخلي فلقد أقام عندنا ما يقارب العام بعد أن تعرض لإصابة بظهره، فهو بطل حرب شارك بحرب فلسطين يوم استنفروا أبناء البادية للحرب، وكان معه والدي عندما انفجرت قنبلة يدوية بجانبه وسببت له إصابة بالغة بالظهر.. لم يكن له من الأصحاب إلا والدي، جدك صالح الذي أسميت أخاك تيمناً باسمه..

فلقد كان رجلاً كريم نفس وصديقاً لا يغدر ومن شدة كرمه ما كان لمنزلنا باب لعل هناك محتاجاً يخجل من طرقه!

وهذا هو حال البعض بقريتنا التي تبعد أميالاً عن المدينة..

حيث كان يعمل بتجارة التمر بعد تقاعده المبكر من خدمة الجيش، فكان يأخذ المحاصيل من المزارعين ويذهب بها لسوق المدينة.. حيث كان يزور صديقه أبا عبد الملك الذي كان يتوجب عليه أن يلزم الفراش بعد خروجه من المستشفى.

ولأن أبا عبد الملك من عائلة تسكن إحدى قرى نجد ولا أحد سيقوم على رعايته هناك والسفر بوضعه هذا شاق،

قرر جدك صالح أن يستضيفه بمنزله حتى يُشفى

أنا الابنة الوحيدة لوالدي.. أنا من كنت له الأم والزوجة والابنة والابن.. ومعنا يسكن (الصبي) عبدو.. يساعد والدي بفترة النهار وينام أحياناً إذا اضطر لذلك فلا مكان يعرفه عبدو غير منزل أبي..

كان بمثابة الابن وجوده بالمنزل ضرورة حتمية.. ومع انشغال والدي وسفره للمدينة كان هو حارس المنزل وهو من يقوم على تلبية كل احتياجاتنا

جاء والدي بأبي عبد الملك وطلب من عبدو أن يجهز له فراشاً بالغرفة القريبة من المجلس.. كان والدي صالح رجلاً لا يملك إلا منزله هذا والقليل مما يأتيه ليسد حاجة البيت والناس.. لكن ما شكا من حاجة ولا من ضيق حال فالكريم دائماً يمده الله بالعون وهذا ما يقوله والدي..

من خلف الباب أنظر لذاك الضيف المريض الذي حكى لي أبي حكايته وهو يتكئ على كتف والدي ويلف عبدو يده حول خاصرته فيصيح من الوجع..

كان طويلاً.. بأكتاف عريضة وصدر ممتلئ أسمر البشرة تلك السمرة التي تجذب الروح لملامحه الدقيقة، عينيه والحاجب الذي يغطيهما بكثافة، وشفتيه المبتلعتين للداخل برسم خط دقيق ويعلوهما شارب مرتب أسود، وله عارضان يحدان وجهه وكأنهما يرسمان حدود مملكة خاصة..

كان أنفه كبيراً لكن ما كنت أتخيله بغير هذا الأنف الذي أشتم رائحة أنفاسه وأنا أحدثك الآن..

- تتنهد عمتي زكية وهي تتذكر حديث والدتها ثم تعاود وتضم كفيها لصدرها ثم تكمل حديث جدتي عفيفة..

لم أعرف ما الحب قبل أبي عبد الملك.. ليس لكوني ابنة السابعة عشرة ومفتونة برجل يسكن منزلنا أعد له الإفطار والغداء والعشاء دون أن أراه.. ودون أن يعرف حتى بوجودي.. تربينا أن جمال المرأة حياؤها.. وكان يشاطرني هذا الجمال بخصلة الحياء هذه..

لكن كان شعور ما يجذبني له، لصوته، حتى لضحكته التي أسمعها وهو يتحدث مع عبدو ويمازحه.

كل يوم أعرفه أكثر من الأخبار التي بنقلها أبي لي، شجاعته وكرمه وسخاء روحه، الرجال تعجبهم هذه الصفات ويتحدثون عنها كثيراً وأنا كنت أود لو أسأله إن كان له صورة بجيبه أو بمحفظته النساء لها اهتمام آخر، ذاك الاهتمام الذي يتعلق بالعين، حتى لا أنسى شكله، فأنا أسمع صوته فقط.

سمعت صوته مرة ينادي:

- عبدو

ثم يعيدها بصوت أعلى:

- عبدو

كان ينادي بصوت الحاجة لأنه غير قادر على النهوض بسبب إصابته

كنت ألتف بمكاني، بغرفتي المحدودة الزوايا أصل للباب أهم بالخروج ثم أرجع.. أين أنت يا عبدو أقولها بصوت لأسمعني وأنتظر أن يسمعني عبدو أيضاً، فوالدي منذ الصباح لم يعد.. لا أعرف لمَ هذا التوتر والخوف أيضاً هل لأنه ضيف والدي

ووجب علينا رعايته أو لأنه مريض ولا حيلة له أم أن.. ماذا تكون الـ أن هذه؟!

- لا لا...

أقولها لنفسي يستحيل أن يكون شيئاً آخر غير ما ذكرت..

صوته يقطع حديثي وهو ينادي من جديد:

- عبدوو

ثم يستغيث يا أللـه

عرفت أن هناك شيئاً ما قد حصل له أخذت عباءتي ووضعتها على رأسي وركضت مسرعة لغرفته كان الباب مفتوحاً وهو على طرف فراشه المدودة بمنتصف الغرفة ويبدو أنه حاول بكل الطرق أن يصل لدورة المياه وقبلها لعكازه وما بين فراشه ودورة المياه أربعة أمتار فقط لكن لم يكن هناك أي وسيلة تساعده على هذا..

وقفت وأنا أغطي نصف وجهي وأقف على زاوية الباب لأنظر له بعين الحياء والارتباك..

انتبه لوجودي والتقت عيني بعينه..

فلقد كانت ملابسه مبتلة كطفل صغير

ما أن رآني حتى صار يكدس من الأغطية فوقه وهو يصرخ:

- اطلعي من هنا..

لا أنسى رجفة يديه.. عروقهما وحجمهما وسمرتهما، عينيه نظرته وارتباكها وكبرياؤها.. صوته الممتلئ بالعجز لكنه قد وقع بقلبي فله بحة وكأنه للتو استفاق من نوم عميق تلك البحة التي تود أن تلتهمها فور سماعها..

لم أخرج كما طلب مني لكني دخلت لغرفته وكأن الأمر يعنيني وناولته عكازه البعيد عنه وضعته بمحاذاته وأنا أنظر

لعينيه مباشرة أخرجت له ملابسه التي أغسلها بيدي كل يوم.. وأدس عروق الريحان والخزامى بينها ليحظى بعبق دائم..

خرجت مسرعة من الغرفة لأرفع عنه الحرج

وعني..

عدت بخطا مهرولة للغرفة ألف عباءتي عليّ لعل رجفة قلبي تهدأ، لم يكن بالأمر الهين أن أقتحم غرفة رجل عاجز لأقدم له المساعدة وأحدق بعينيه وأخرج..

رجل يسكن عندنا وسيكمل عاما بعد أشهر! ولم يلمح لي طيفاً ولم أرَ له ظلّاً منذ أن دخل لبيتنا غير تلك المرة..

بعدها بدقائق سمعت صوت باب دورة المياه وكأنه استطاع أن ينهض أخيراً..

امتنع أبو عبد الملك عن الأكل فجأة وعن الكلام أيضاً.. ولم يجد والدي تفسيراً لما حل به ولكنه كان جل طلبه وإلحاحه الدائم أن يسمح له والدي بالمغادرة ويساعده للوصول لأهله. لكن والدي كان يرفض خوفاً عليه لأن وضعه الصحي لا يسمح له بالتنقل ولا حتى مغادرة فراشه..

فلما وجدت أن الموضوع صار يحزن والدي.. قررت أن أخبره بالحقيقة وما حدث وأن كل ما يمر به أبو عبد الملك هو الحرج من الوضع الذي شاهدته به وكيف اضطرني للذهاب لغرفته..

كنت أحكي لوالدي بهدوء وأنا ألف أصابعي بعضها ببعض من الحرج ولكن كان رد والدي صفعة، كانت الأولى بعمري كله لا أعرف هل هي حزن على صديقه أم غضب مني كيف أخرج من غرفتي لغرفة الضيف

لم يدع لي وسيلة للتبرير مطلقاً قام غاضباً وخرج من المنزل ليعود بعد ساعة ومعه عاقد الأنكحة ليزوجني من أبي عبد الملك!

كيف يزوجني من رجل عاجز ويقدمني كوجبة عشاء لضيوفه حتى وإن كنت أحمل له شيئاً بنفسي.. لم أستغرب ولم أتعجب من تصرف والدي لكنه كان يحاول رتق شيءٍ ما بنفسه بهذا الزواج..

رفض أبو عبد الملك.. فلا يزال قلبه رطباً من حكاية موت زوجته منذ أعوام وهي حامل.. لقد فقد زوجته وطفله بآن واحد.. رضي بكنية أبي عبد الملك ولم يعرف بعد هل كانت زوجته تحمل ذكراً أم أنثى..

لكن دائماً ما كان ينادى بهذا الاسم وكأن لم يكن له أي اسم قبله!

رغم كل محاولات أبي رفض، وأخبر والدي أنني أخت له ولم يلمح مني شيئاً ليطمئن والدي وحسب.. لكن وقت رحيله من المنزل قد حان..

عناده

غضبه

قراره بالرحيل

كانت كفيلة أن تجعلني أحبه

فالحب من الرجل الأصعب هو الحب الذي يدوم طويلاً

رتب والدي لسفر ضيفه حسب رغبته.. لكن القدر كان له ترتيب آخر.. فلقد سرق الموت والدي بصباح اليوم الذي سيغادر به الضيف منزلنا.. أصبحت القرية كلها على فاجعة موته.. التهمني الحزن ولم أعِ بالأفواج التي جاءت معزية بفقد روحي، لم يبق لي بعد رحيله من أحد.. وكأن كل العالم بجملته قد رحل معه!..

أصبح عبدو ولي أمري.. هذا ما قلته لأبي عبد الملك بعد أن طلب محادثتي قبل رحيله وعودته لأهله وكان قد مضى شهر

على وفاة والدي..

- أنا ولي أمرك منذ الآن..

قالها أبو عبد الملك وأقسم على البقاء.. وبر بالقسم وهكذا تفعل الرجال..

تزوجني بعجزه وعكازه لكن لطالما كان هو بطلي الذي أستند له حتى لو لم تضطرني الظروف لذلك..

أنجبت منه صالح وأنت يا زكية

الحياة قصيرة جدّاً مع من نحب طويلة جدّاً عندما نتمنى الرحيل مع من رحلوا..

رحل حبيبي وترك ندبة بقلبي لا تشفى، رحل وجعلني أهيم بذكراه وأنتظر عودته ولو حلماً.. رحل حبيبي وما قلت بعده لأحد حبيبي وأنا من نذرت عمري وقلبي له ما حييت.. وإن غادرني فسيبقى بداخلي..

رحل وجعلني أهيم بذكراه وذاكرته بابتسامته وغضبه، بحبه وعناده بمزيج من قسوته وعطفه، بحب وهبني إياه ولم يقل يوماً إنك حبيبتي.. كانت عيناه دائماً من تخبرانني بهذا..

عندما ينظر لي ويلملم ابتسامة بشفتيه كلما لمح عينيّ..

الحب الذي رحل..

وأخذ كل مباهج الحياة..

تصمت عمتي..

تتنهد..

تتذكر عيسى

وكأنها تشارك والدتها الحب ذاته غير أن والدتها حظيت بالزواج أما هي فقد وقفت العادات حاجزاً بينهما

تبكي عمتي الآن..

كل هذه التفاصيل حكتها لي عمتي وكنت أدونها لأربط الخيوط بعضها ببعض وأصنع الحكاية كما جاءت.

أظن أنني أخيراً قادرة على ربط الحكايات المتناثرة والأحداث العشوائية التي تفصلها تنهدات عمتي وحرصها على إخباري إياها كـ سر عظيم..

ألتفت إليها وأقول:

- أنا جاهزة الآن هاتي بقية الحكاية

تحدق بوجهي وتقول:

- من أنت؟

وتطردني من غرفتها كالعادة بالصراخ!

هي تعرف جيداً من أنا ولكن تشعر بالخزي بعد أن تتحدث بكل ما أوتيت من خرف لتشي بأسرار عمرها.. أسرار حفظتها بداخلها لعمر طويل

من المؤلم أن تكون أنت من يخبر العالم أجمع عن سر احتفظ به طويلاً..

"أصعب ما يمكن أن يجد المرء نفسه غارقاً فيه هو اضطراره لتفسير شيء لا يستطيع أن يفسره حتى لنفسه"

- إبراهيم نصر الله

كل الأيام متشابهة

هل قلت هذا من قبل؟

أظن أن من يكثر الحديث عن هذا الأمر هو أكثر شخص لا يتقبل الأحداث الجديدة بواقعه، رغم أنه يود ذلك لكن الاعتياد يجعله أقل تحملاً لتقبل أمرٍ جديدٍ أو حدث مفاجئ..

اعتدنا على صراخ هيفاء بالبيت من أجل ابنها قصدت أخي والذي اختار له والدي اسم (محمد) وكأنه يريد أن يبقى محمد موجوداً ولا يتقبل أن يكنى بغير أبي محمد..

مات محمد وولد محمد آخر..

فقد الأول يرتقه آخر.. بالواقع لا محمد سيأتي بعد محمد ربما محمد الأول يجمعنا به هوية مشتركة، حال واحدة فراش واحد وطبق واحد.. أما محمد هذا فأمه مختلفة عن أمي ولا يكاد يخرج من غرفته لنراه فلقد كانت حريصة عليه كـ كنز سيفتح بعد أيام وربما أشهر هو الوريث الأكثر نصيباً لكل ما جمعه والدي طوال هذه السنوات...

خبر حمل هيفاء كان صادماً لنا جميعاً فجميعنا نعرف عدد محاولات والدي السابقة للإنجاب والتي باءت جميعها بالفشل بعد أن أكد له الأطباء عدم قدرته على هذا بعد عملية أجراها وكان لها تأثير مباشر على قدرته على الإنجاب بعدها.. لكن والدي يؤمن بالمعجزات فما بالكم بمعجزة تأتيه بولد!

كلما انتفخ بطن هيفاء زاد والدي حبّاً لها وزادت هي تسلطاً وقسوة عليّ وعلى عمتي زكية..

الكلمة لها والأمر لها وكل شيء يحدث هو بأمرها، الجميع يخافونها إلا أنا.. لكني أحب والدي لهذا أمرر كل شيء بسكوت وصمت مطبق فقط ليبقى والدي بالمنزل رغم محاولاتها المستميتة لإخراجه..

لكن مجموعة نسوة من يرعاهن؟!

هذا رد والدي عليها بكل مرة تطلب منه فيها الطلب ذاته.. بعد موت محمد وتبعه موت والدتي وزواج أخواتي بقيت أنا وحنان وعمتي التي أصابها الخرف وعلى فراشها عاجزة..

كان لا بد له أن يبقى معنا.. بمجتمع لا يلتمس لك أعذاراً ولا يقبل مبررات واهية..

كنت أتمنى لو كان لدينا عبدو كما كان لجدتي عفيفة فوجود الرجل أي رجل يسد عجز الحاجة بمجتمع كمجتمعنا.

ولادة محمد أحدثت فارقاً ملحوظاً بحياة والدي ولم تشكل فارقاً لدينا، لكن هيفاء لم تتوقف عن التوتر والصراخ الدائم فمنذ حملها بمحمد وهي على هذا الحال من التنمر والسيطرة..

عرفت الآن لمَ طلقها فهد!.. وربما كنت أبحث عن عذر واضح لتخلي فهد عنها

لا يوجد رجل يطيق امرأة نصفها لسان ثرثار والنصف الآخر ثعبان..

وجدت هيفاء أخيراً من يتقبلها بكونها الوعاء الذهبي الذي أنجنب أخيراً الولد بعد عناء من المحاولات والزيجات والطلاق والظلم أيضاً..

لا تبرر للآخرين أفعالك ومواقفك وآراءك وحتى قناعاتك..
حاول أن تتجاوز هذا كله فقط لتنعم بسلام داخلي مع ذاتك

وتتصالح مع كل العقبات التي ستواجهك لأنك وحدك من يملك القرار حيالها..

زيارات فهد الأسبوعية لأخته وعد تقاربت وصار يجلس مع أخي محمد أكثر من جلوسه مع وعد رغم أن محمد لم يتجاوز الثلاثة الأعوام.. كان يحكي معها كثيراً وبصمت عندما ينظر لمحمد.. كنت أظن أن هناك نوعاً من الحنين لهيفاء لكن هو لا يجتمع معها لا يصادفها إلا بزيارتها لابنيها بمنزل والدتها فتلتقي بهما هناك تقضي معهما يوماً كاملاً وتعود..

هذا اليوم الذي نحظى فيه نحن أيضاً ببعض الهدوء وكأنها تأخذ كل الضجيج وتذهب، ففي اليوم ذاته يأتي فهد لزيارة وعد.

استقبلته وعد متلهفة لما أتى به من هدايا كالعادة، يمسح على رأسها ويظل صامتاً ثم يرفع عينيه فجأة لتلتقيا بعينيّ.. لا أعرف أي حنين يجذبني لفهد أي حكاية تنوي أن تكتب من جديد أي بسملة هذه التي أبدأ بها يومي..

هل يعقل أن يولد بقلبي فهد من جديد!

التفت لوعد وقال:

- كنت صديق خالتك ورد وحنا صغار

- مع ماما ورد؟

ترد وعد وكأنها تصحح له المسمى أنها ماما وليست خالة

تبسم فهد..

تبسمت أنا لا شعوريّاً

وكأن الحديث بدأ للتو وكأنه بالفعل هو يتذكرني!

وربما مجرد حديث يقطع به صمته مع وعد.. لا أعرف ولكن كأن هناك بذرة ستزهر بطينة روحي.. أخاف السقيا لكن سأدعو الله أن تمطر..

صرت أنتظر زيارات فهد وكأني أود منه أن يجدد الحديث ويذكر المزيد لعله يذكر حادثة أصبعه وكيف حاولت أن أكون

طبيبته وأداويه.. لعله يذكر لعبنا واختباءنا وبيت الطين ورحلة البحر

أبتسم

ثم أردد برهبة: يا رب، أخاف أن يتذكر أيضاً حادثة فتح الباب والهيئة التي كنت عليها وأنا عمياء..

لا لا، لا أريد أن يتذكر شيئاً..

ممَّ أخاف أنا؟.. ألم ينتهِ فهد يا ورد؟

بلى انتهى

ما الجديد؟!

- لا أعرف..

لقد كنت معي..

لقد أقسمت على البقاء..

لقد كنت معي..

تشاركني الهواء والغناء

كنت معي حينما تشد على يدي وتخاف عليّ من الضياع

لقد أقسمت على البقاء

لا شاهد عيان لدي ولا ورقة ولا حتى منديل ألوح لك به

وأخبرك أنك هنا تشاركني الهواء والغناء..

لقد كنت تشاركني الأنفاس أشهق بملء رئتي وتزفرني أنت!

كنت أختارك شهيقاً واخترتني زفيراً!

وأعاود أشهقك لا لأعيش

وإنما لأحيا وأولد بكل مرة من جديد..

ما بين مفارق أصابعك زرعت أصابعي..

لم أكن أعرف كيف تبدو ذراعي دون ذراعك!

كنت تسألني عن أسماء أصابعي وأجيبك

أنت والوسطى!

أنت والسبابة..

أنت والإبهام..

كنت أراك أنت وكأنك مخلوق مني وكل شيء بك يتشجر بي

معشوشبة بك مخضرة روحي

هناك زهرة بيضاء تنمو على منحدر شفتي كلما قلت (أحبك)

غصن أخضر ينمو بين أضلعي كلما تذكرتك

من أين لي كل هذا التصحر الآن!

أين الينبوع الذي يروي روحي قبل أن أشربه؟!

من قطف الزهرة البيضاء من منحدر شفتي!

من ترك أصابعي للريح؟!

من أترع أنفاسي وجعلها متقطعة شبعاً وجوعاً!

أين الأغاني التي كنت أحفظها وأغني لحنها دون كلمات؟

من أقسم على البقاء وجعلني كطفلة مذعورة تائهة أبحث عنه؟

من اختار الموت وطلب مني أن أحيا؟!

من اختار الموت وطلب أن أجهز له الأكفان؟!

أحشو كل سد لذاكرته وأقبل جبينه لينام!

لأودعه لحياة اختارها دوني.. ليعيش حياة البرزخ وأعيش أنا كما تشتهي النيران!

تلتهم كل ما حولها لا ماء ولا غيم ولا سماء

من اختار الموت كيف له أن يحيا معك؟!

ماذا تفعل الأجساد إن غابت أرواحها.. ماذا أصنع بدمية لا تشاركني البكاء!

من علم هذا الكون كيف يموت الأحياء ويعيش الموتى؟!

كيف أبدو بعد هذا!

لا أصابع ولا رئة ولا زهر ولا حياة..

كيف أخلصني منك وأزرعني من جديد؟!

ينتابني شعور أخاف أن أخبركم عنه..

شعور تلك المراهقة التي التقت لأول مرة بشاب وسيم.. لا تعرف هل تحدق به طويلاً أو تكتفي بنظرة خاطفة أم أن حياءها لم يعطها حق النظرة.. لكنها مراهقة تبسمت.. تنهدت..

وربما قالت كلمة كتمتها بينها وبين نفسها

نعم قلتها

- يا عيونه!

لا أعرف ما الذي جعلني أراها وكأنها عيون فهد التي تحتفظ ببريقها الخاص ولمعتها رغم العمر رغم السنوات رغم الفراق رغم أنف كل ما حدث!

لقد كبرنا وتجاوزنا المراهقة والشباب أيضاً، لكن الحب يولد ولا يموت لا يشيخ هو يكبر ويعمر لكنه يظل للأبد..

كنت أرجو الله أن لا يعلق قلبي بما ليس لي.. ويجعل لي من أمري خيراً،

ها أنا قلب تعلق من جديد.. هل تظنون أن به خيراً هل تظنون بالفعل أن فهد سيكون لي؟!

أقولها وأنا أضم كفيّ لصدري وأعض على طرف شفتي وأرفع رأسي للسماء وأغمض عينيّ.. أرى كل شيء يمكنني أن أراه وأنا مغمضة عيني فقط..

وما نراه بهذه اللحظة لا يجوز البوح به..

فبعض الخيالات حصرية..

هي من حقنا نحن وإلا لما كانت خيالات

يقطع هذا التخيل رنين الجوال بجيبي.. إنه فهد..

وكأن الخيالات تأتي بما نشتهي وجودهم بمن نفكر بهم وباللحظة المناسبة وربما اللحظة ذاتها، يبتلع بحة صوته الأولى ليقول:

- مرحبا

وكالعادة يبحث بكل مرة عن عذر ليهاتفني يبدؤها بكيف حال وعد وينتهي بكلمة أشتاق لك..

ماذا لو بدأها بـ اشتقت لك وانتهى بكيف حال وعد.. لمَ نضع المبررات لأشواقنا والمقدمات الطويلة لنسمع صوت من نحب أو حتى لنرى من نعشق؟

لقد أخبرت أمي زكية بما أشعر.. هل قلت أمي؟!

اشتقت لأمي وحتى لا تتعفن الأحاديث بصدري كنت أجلس أمام عمتي زكية وأحكي لها عن مشاعري وشعوري عن الحب الوحيد وعن الطائر الذي زار شباك الأميرة النائمة ليطرق بمنقاره بخفة وبدعوها للصباح للحياة ويهدي لها جناحه لتطير، ومرة دعاها لحقل بعيد جدّاً لا أحد يزوره ولا يسكنه لم يطأه بشر، إلا هو وهي وسنابل قمح ممتدة وهواء يراقصها، لم يكن هناك كوخ بمدخنة ولا صوت احتراق الحطب كما يفترض أن أكمل به حكاية الأميرة وطيرها..

وحتى لم يكن هناك بيت صغير ولا غرفة ولا سقف لقد كانت مساحة ممتدة لا تنتهي لشيء ولا حدود محاطة بسور.. لقد وعدها أنه سيغني لها العمر كله لتكون سعيدة لتحب الحياة معه ليعلمها أنه طيرها الوحيد وأن الأجنحة لا تليق إلا بأميرته.

كنت أحكي لها حكاية الطير والأميرة كل يوم وهي تبتسم..

كنت أود إخبارها أن طيري هو فهد وأني أنا الأميرة النائمة، تماماً كالأميرة النائمة بحكاية قديمة انتهت بقُبلة أمير وأنا أحلم بجناح طير لأشاركه السماء..

لكن الخرف لا يترك مجالاً للأحاديث أن تبقى عالقة بالقلب فهي تتبخر سريعاً عند أول لقاء مع أي شخص يسألها كيف حالك..!

حتى إني سمعتها يوماً تحكي للخادمة حكاية الطير وعصفورته.. كانت تحكي لها وهي فرحة وتشير بيديها وكأنها تود الطيران وتصفق بهدوء لتغني لنفسها (عصفور طل من الشباك..) بصوت عمتي لا صوت فيروز غير أنها وحدها من

كانت فرحةً بالحكاية، فبمجرد ما انتهت الخادمة من تنظيف الغرفة خرجت، وأغلقت الباب دون أن تلتفت لعمتي التي تركت يديها معلقتين بسماء الخيال دون حتى أن تسألها أين طيرك أنت أو تتمنى أن يعود طيرها الأسمر ويطرق نافذتها، دون أن يعلم والدي صالح بهذا وأن تكون قادرة على التحليق بعيداً عن ظلم والدي لها طوال تلك السنين..

ربما ما عاد هناك طيور صادقة.. ولم تعد هناك أميرات نائمات..!

الساعة الآن الرابعة فجراً

نهضت من فراشي بعد ليلة أرق طويلة..

وقفت أمام المرآة أهندم شعري المنكوش وأفرق الشعرات يميناً ويساراً لأسد الفراغات وربما أغطي الشعر الأبيض.

للمرة الأولى أجد أني جميلة وأعترف لنفسي بهذا.. أتحسس ملامحي عينيّ اللوزيتين المسحوبتي الأطراف لولا أن أحاطتهما بعض التجاعيد الصغيرة.. لكن كل خط هنا هو حكاية كفاح، حكاية لم يعرفها أحد غيري، ظهرت لهم كتجاعيد ولم تظهر كصراخ.

أنفي وقد تخلص من كل آثار الحبوب بعد أن نسيت أمر علاجها أو التحديق بها طويلاً ومحاولة عدها.. عرفت أن علاج الشيء إهماله ليس كل شيء، ولكن الشيء الذي تكون نفسيتك هي السبب الرئيس له فعندما تهمله وتنساه سيختفي تماماً عرفت أنني شُفيت من الداخل..

هذا الهدوء بملامحي يشي بعاصفة قادمة، عاصفة لا أعرف ما الذي ستدمره هذه المرة.. لكن أشعر بقربها

أبتسم.. وأردد: الحمد لله أنا بخير.

أدير ظهري متفحصة الغرفة بنظري، رف الكتب الذي يشابه

بجماله رف أي درج مكتظ بالمساحيق و(الأرواج)الملونة لدى فتاة مراهقة تجرب الألوان للمرة الأولى على شفتيها وربما تقف أمامه وتشتهي التهامه.

هذا ما يعني لي رف الكتب بمكتبة صغيرة لا تتجاوز الخمسين كتاباً أتفحص استقامتها بكل ليلة، لألحظ كتاباً مائلاً أذهب لأعيد استقامته وأسأل نفسي ما الذي أخرجك من الصف الذي احتفظت به لعام.. عام كامل لم يتحرك من مكانه كحال بقية الكتب.. لكن أظن أن البطلة بهذه الرواية كانت تحن لبطل غادر للجزء الآخر من الرواية وظلت تحاول أن تفك قيد الورق لتخرج وتلتصق به.. صرت أقلب بين الكتب أين الجزء الثاني من هذه الرواية كيف لكاتب قصة لعين أن يقرر أن يفرقهما بهذه الطريقة!، لمَ لم يكتب لها نهاية عادلة كـ أن تموت معه أو تحيا معه.. لمَ النهاية المفتوحة؟!..

ألم يسمعوا عويل الأبطال بكل هذه الكتب!

عرفت أخيراً مكان البطل وألصقت الروايتين بعضهما بجانب بعض.. فحبيبها يستحق أن يعيش معها.. كان رجلاً شهماً يحب بصدق ولا يسمح لها بالخروج وحدها ولا حتى بقبول دعوة دون أن تستأذنه.. كان يتأبطها بكل مناسبة ويغني لها بكلمات نزار وماجا بالحب بكذبه ومعسول كلماته، يحلم أن ينجب منها قصيدة تشبهها.. لكن قرر الراوي أن يختار له أنثى أخرى بجزء آخر، أعرف روائيين يبكون لموت أبطالهم رغم أنهم شنقوهم بحبرهم وأعرف من اعتزل العالم واستسلم للبكاء بعد انتحار بطل رواية رغم أنه هو من دله على الهاوية..!

جمعت الجزأين وأكاد أسمع شهيق أنفاسهما والقبلات الممزوجة بالدمع.. وكلمات أحمد شوقي بغزل يرددها:

لم أدر ما طيب العناق على الهوى

حتى ترفق ساعدي فطواك

ربما هناك طرف ثالث يشتمني لفعلتي هذه، لكني لوحت لهما من بعيد وتمنيت لهما سهرة ممتعة ولي نوماً هانئاً..

بهذا الصباح شكت ابنتي وعد من حرارة وتعب مما اضطرني لمنعها من الذهاب إلى المدرسة، فكل حادثة حمى تذكرني بالحادثة التي قصمت عمري نصفين، بالحمى الشديدة وإصرار أمي على ذهابي وعدم تغيبي ثم حالة الإغماء وإسعاف معلمتي لي مع العم كمال حارس المدرسة للحادث الذي أفقدني بصري وأفقدني معلمتي وأصابع العم كمال..

تسع سنوات كانت كفيلة لتجعلني أخاف بطريقة هستيرية من الحمى ومن السيارات أيضاً..

لففت وعد بغطاء سريرها وحملتها لصدري وركضت مسرعة أصرخ بصوتي على السائق ليجهز السيارة.. لقد سمعني الجميع إلا هو!

عمتي زكية تنادي بصوتها وتشتم الخادمة لتأخر إفطارها وحنان التي تخيط ملابس دون أن يطلب منها أحد هذا، ولكنه الشيء الوحيد الذي تفعله والذي ما عادت تجيده فرجفة أطرافها ازدادت سوءاً وصارت غير قادرة على فعل شيء يستحق.

زبائنها عرائس وعد بكل يوم تخيط لهن ملابس بلا أكمام وربما بلا صدر ولا أزرار لكن وعد دائماً يبهرها هذا.

طوال طريقي للمستشفى أنظر لوجه وعد وهي مغمضة العينين بوجنتها المحمرة وفيها الصغير كشق صغير فتح للتو، لتنفث هواء حارّاً، نبضاتها المتسارعة وصوت أنين صدرها المتقطع، كنت أتأمل أطرافها يديها وساقيها الممتدة بمحاذاة رجليّ.. وأردد: لا تكبري يا وعد.. بالأمس خرجت بك من المستشفى وعمرك يوم، صغيرة وحضني كبير.. لا يزال حضني كبيراً ويسعك عمراً فوق عمرك. أرجوك كوني دائماً طفلتي

كوني دائماً ابنتي وصغيرة أرجوك لا تكبري فجأة.

أخبرني الدكتور أنها تعاني من داء الجدري والذي بدأ يظهر جليّاً كحبوب منتفخة بالماء أو يهيأ لي هذا..

انتشر بسرعة ببطنها وصدرها فوق حاجبها وفوق كل مسامة بوجهها الأمر الذي جعل الجميع يعرفون أنها تعاني من داء الجدري..

وهذا ما جعل والدي يصر على عزل وعد بغرفة حتى لا يصاب أخي الصغير محمد، بعد تحريض من هيفاء كالعادة.. هو خوف أم بالطبع ولكن جاء بطريقة مستفزة لي.. أشعر أن لدي حساسية بكل موضوع يخص وعد

وبالفعل حدث هذا ولكن لا حيلة لنا مع طفل يحب الركض حتى وهو متعب.. ويحب الحياة بكل تفاصيلها بصباحها ومسائها وكما جاءت له هو يستمتع بلحظتها..

وهذا ما جعل أمر حبسها الانفرادي أمراً بغاية الصعوبة وحبس محمد أيضاً أمر يستحيل لأنها أرادت هذا..

ليقرر والدي انتقال وعد لبيت أهلها ويقصد بهذا عند فهد حتى تُشفى تماماً..

رفضت ووضحت لوالدي أنها طفلة بحاجة للعناية بحاجة لمواعيد علاج دقيقة ومن الصعب أن أرسلها لبيت فهد لتقوم خادمة برعايتها فمنذ والدتها لم يمسها ويرعَها غيري..

بكيت متوسلة لوالدي وأني مستعدة لـ أحبسني معها هذه المرة لكن تراجع عن قرارك هذا وهي بهذه الحال. فهي تحتاجني أكثر من أي وقت مضى..

رد والدي:

- روحي معها

سكت أنظر إليه

- معها؟!

- نعم وفهد ما هو غريب ونعم الرجل ومعه أولاده بالبيت والخادمة معك وأسبوع ما يضر.

صرخت عمتي زكية بصوت عال صوت مدوٍّ وقامت بضرب رأسها بكفيها وشد طرف ثوبي وهي تقول:

- لا

ما بين صراخ عمتي والذي لا أجد له مبرراً فقط عندما قال فهد وبيته، وبين مرض وعد وقرار والدي..

رفضت خروج وعد وأيضاً خروجي

وقلتها بصوت هادئ:

- لتخرج هيفاء بمحمد كزيارة لبيت أهلها تستمتع و(تغير جوّ)

هز والدي رأسه وتبدل القرار

أسبوعاً كاملاً نعمنا جميعنا براحة وهدوء بدون هيفاء وتنمرها..

لا أعرف كم عمر انتظاري

ولكن أعرف تماماً أني ولدت مرة واحدة ولن تفعلها أمي مرة أخرى

لك ما مضى من عمري.. ولي الآتي..

بعد الظهيرة وقبيل العصر الوقت الذي تشتهي به عمتي زكية إبريق الشاي وأشتهي أنا النوم. لكن عمتي ترفض أن يقدمه لها أحد غيري.

أمام عين البوتاجاز أراقب غليان الماء تارة والخادمة التي تغسل الأطباق تارة أخرى.. أشعر أنها سرقت الشيء الذي كنت أستمتع به وأحكي لنفسي به حكايات وأفكر بكل شيء حتى بيوم زواجي، فغسيل الأطباق هو المهمة الشاقة الملهمة التي تمنحك جهداً إضافيّاً كلما امتد تفكيرك.. ربما تطرأ لك فكرة السفر فكل ما عليك أن تتخيل هذا.. سافر من خلال طبق طائر بالرف العلوي واختر لنفسك درجة رجال الأعمال وابحث عن وجهتك المفضلة وأنت تلف الإسفنج الممتلئ بالصابون وإن لم يحالفك الحظ بهذا الطبق فربما تجده بقعر قدر أو على ظهر سكين حاد.. كل الوجهات التي تحلم بها ابحث عنها وعشها ولو خيالاً.. لا أنسى تلك الرحلات التي صنعتها بنفسي لقد سافرت كثيراً وبكل مرة مع أحدهم لكن أجمل رحلاتي كانت مع نفسي لأني كنت ألعب خلالها بفقاعات الصابون وأغدق من الصابون وأجعل صنبور الماء يهطل فوق كل الأطباق، كنت أشعر بحاجتها وحاجتي للمطر.. وأغسل وجهي لحظتها ثم أرفع رأسي للسماء وإن حال بيننا سقف لكن كنت أقولها: يا رب المطر أغثني.. كنت أدعو وأحلم وأكتب وأفعل كل شيء خلف هذا المجلى الصغير.. لقد حظيت الخادمة بكل هذه المتعة وبكل هذا الهروب..

أحمل لعمتي إبريق الشاي مع كوبها الذي تحتفظ به لسنوات ولم تجرب غيره لقد انشرخ طرفه وبكل مرة تنجرح وتكمل رشف الشاهي ولا تبالي بجرحها أو حتى بمذاق الدم.. حينما تتكئ بشفتيها على طرف الكأس وتسرح بعيداً ثم تبدأ ذاكرتها بالتبخر لقد حان وقت الحكاية..

- وعد تبكي

تقولها عمتي

لا أسمع صوتاً ثم إن وعد نائمة الآن

ثم أرد:

- هي نائمة يا عمة

تحدق بوجهي وتقول:

- اتصلت عليّ من بيت أخيها وهي تبكي

أصمت قليلاً وأفكر

- وعد لم تذهب لبيت أخيها فهد منذ فترة طويلة!

لكن لا بد أن أصدقها وأجيب:

- وما الذي تريده منك؟

عندما يتحدث معك شخص خرف..

إياك أن تكذبه!

فأصدق الحكايا هي بالأصل/ سر / كان يحتفظ به طويلاً..

أكملت عمتي حديثها غير المنتظم ولكن كانت تحكيه وشفتها تنزف دماً وهي تشد الكأس المشروخ لفمها وتحدق بمكان واحد، وعيناها محمرتان وكفاها ترجفان، كان لا بد أن أكتب الآن لعلي أصل لشيء مما تريد أن تخبرني به

ركضت مسرعة للطاولة بغرفة عمتي والتي تحوي مشطاً واحداً ونصف قارورة عطر وعلبة صغيرة بها بعض الخيوط بدون إبرة وكأنها ما عادت بحاجة لخياطة أي فتق بعد الآن.

أخذت الدفتر الصغير والقلم الحبر لكن ما أن بدأت تتكلم حتى اكتشفت أن القلم لا يكتب

حاولت أن أحك رأسه على ظهر الورقة وأن أعنفه بضربه على الحائط لكن لا جدوى رغم أنه استجاب معي بالتعنيف مرات عديدة لكن يبدو أنه استسلم أخيراً.

وأنا أحاول هذا كانت عمتي تتكلم ببطء ثم تبكي بدمع ثم تنظر لي وتقول:

- والله ياا يمه عفيفة ما كذبت

والله ياا يمه ما كذبت

هنا يقشعر بدني لأنها تظن دائماً أنني أمها طالما أحمل الاسم نفسه

أقول لها:

- أصدقك

تكلمي

اتضح لي أن الموضوع لا يستحق الإنصات وحسب بل والتركيز وإغلاق الباب أيضاً.

كنت أحاول أن أجمع من شتات الخرف شيئاً واضحاً.. شيئاً يجعلني أصدق كل هذا.. بدأ حديثها ببكاء وعد التي كانت بيومها ببيت فهد فلقد اعتادت أن تذهب لهناك لتقضي نهاراً

كاملاً مع أخيها وطفليه.. وبكل مرة يجهز لهم الألعاب أو يأخذهم لحديقة مجاورة ثم يشتري لها الهدايا وتعود.. ولأنها كانت بعمر الخمس السنوات كنت أخاف عليها أن لا ينتبه لها فهد وتسقط أو حتى تفلت يده وتضيع، لأني أومن أن لا أحد يشبه قلوب الأمهات وهي ابنة قلبي، أرفق معها الخادمة لتبقى معها وبين الفينة والأخرى أتصل على الخادمة لأطمئن على وعد وبالغالب تفعل عمتي هذا فهي رغم كبر سنها وتعبها ومرضها إلا أنها تتفقدنا جميعاً وتحرص على كل فرد بالمنزل فمنذ وفاة والدتي تغيرت عمتي كثيراً لولا الخرف الذي داهمها وأخذ كل شيء..

تحكي عمتي..

عن اتصالها بالخادمة (جمايكا) لتطمئن على وعد وإذا بصوت وعد تبكي فطلبت عمتي من جمايكا أن تكلم وعد وكل ظنها أنها تبكي تريد العودة للبيت أو أن أحد ابنيْ أخيها قد ضربها وهذا ما يحدث بين الأطفال إذا اجتمعوا واختلفوا..

- أيش فيك يا وعد ليه البكاء؟

- خالتو هيفاء تضرب فهد

تقولها وعد بفكر طفلة لا تعني ماذا تود إيصاله

تسكت عمتي ثم تقول:

- هيفاء عندنا لا تخافي يا ماما

لأنها اعتادت خوف وعد من هيفاء فما إن تراها بغرفة حتى تهرب للثانية.. الأطفال لا يخافون ولا يكرهون إلا من يؤذيهم فقط ووحدهم من يشتم خبثك ورغم هذا يصدقك

لكن وعد أصرت ببكائها أن هيفاء تضرب فهد!

لتطمئنها عمتي زكية وعدتها أن تأتي لها وتأخذها فلقد كان بكاء وعد بطريقة الخائف الذي لا حيلة له

وبالفعل ذهبت عمتي إليها وكان منزل فهد قريباً يبعد مسافة الثلاثة الكيلو مترات عن بيتنا..

تقول عمتي زكية..

وصلت للبيت واتصلت على الخادمة لتفتح لي الباب لكن الباب كان مفتوحاً بالفعل

دخلت وأنا أنادي على وعد لكن لا أحد يجيب فاتجهت نحو الداخل لأجد نفسي بالصالة الصغيرة وولدا فهد يجلسان أمام التلفاز وبأيديهما مضارب التحكم للعبة السوني والسماعات الكبيرة على رؤوسهما لهذا لم يسمع أي منهما ندائي قبل الدخول ولا حتى سلامي ثم سؤالي أين وعد

تجاوزت الصالة لأفتش بالغرفة المواجهة القريبة من السلم عن وعد لكن صوت الصراخ يعلو

صوت آتٍ من أعلى من غرفة قريبة من الدرج، على ما يبدو أنه صوت فهد يتكلم بطريقة عصبية لم أسمعه يتحدث بها من قبل وظننت للمرة الأولى أنه يتحدث بجواله مع أحدهم فكان الأمر عادياً، توجهت للغرفة الصغيرة وإذا وعد تبكي ومنطوية على نفسها وبجانبها جاميكا التي لم تحاول حتى تهدئتها فلقد انشغلت هي الأخرى بجوالها.. صرخت على الخادمة بنظرة وتعرفون كيف تصرخ نظرات كبار السن!

حملت وعد وحضنتها لصدري وجففت دمعها بطرف عباءتي ومرة بكفي وقلت لها:

- ليه تخافين أنت حرمة كبيرة وعيب تبكين..

البكاء هو عيب وحتى على النساء كما يبدو

وربما قلتها لأهون عليها وأشعرها بالأمان وأني معها وأن الخوف لا مكان له بقلوبنا.

وأنا متوجهة للخارج أسمع صوت صراخ امرأة ممزوج بصراخ

فهد.. هنا توقفت

كنت أظن فهد يتحدث بالجوال وعلا صوته لكن ما صوت المرأة هذه؟! وخصوصاً أنه غير متزوج وطلق هيفاء من سنوات ولا أنثى تسكن معه، أقصد لا أم ولا أخت ولا أحد سوى خادمة لابنيه حتى إن خادمته قد هربت منذ أيام بحجة البحث عن مرتب أعلى.. صار هروب الخدم مشكلة لا حل لها سوى أن تدفع المزيد وتطلب منهم الرضا..

تجاهلت الصوت وتابعت خطواتي وإذا بصوت الصراخ يقترب ويبدو أن معركتهما قد انتقلت على الدرج بدل الغرفة، وقفت بمكاني وأنا أستمع لكل شيء!

عرفت أن فهد يصرخ متبرئاً من طفل خطيئة ويطلب من هذه المرأة أن تجهضه وأنها هي من أغوته وجعلته يفعلها!

وكأن الزنى الذي يبدأ بالغواية هو جرم لا يُعاقب عليه ولا يؤثم.. لقد افتعل الزنى والآن هو يصرخ بقوله لها: أنت السبب والله أنت السبب ويتلفظ بألفاظ بذيئة ويطلب منها بل ويلزمها إجهاضه!

لكن الغريب بالأمر أن هذه المرأة كانت تريد هذا الطفل بل تؤكد له أنها هي من أغوته وجعلته يفعلها فقط لأنها تريد هذا الطفل تريد ثروة وتريد جاهاً وتريد حياة كريمة..

هي خططت لهذا كله ولن تتنازل لمجرد طلب فهد!..

وعندما نزلت بسرعة تمسك بطنها وكأنها تخاف أن يقع ويشهد بجرمها، وهو يتبعها بالشتائم ويهددها وإذا بهما يتوقفان فجأة وينصدمان بوجودي..

وأنا أقف وأحمل وعد لصدري وهي تحتضنني خائفة من صراخهما لكن يبدو أنا من يحق لها أن تخاف الآن

فالمرأة التي كانت مع فهد

هي زوجة أخي

هي هيفاء

مع طليقها فهد

نعم أنا الشاهد الوحيد وأنا الجريمة!

أنا الحديث الذي يخافانه وأنا بعينهما الرذيلة التي ينويان الخلاص منها!

لكن هيفاء نزلت مسرعة مرتبكة ونغزت كتفي بأصابعها وأظافرها الحادة وقالت وبكل وقاحة:

- إذا تكلمتِ فهو آخر يوم بحياتك..

لكن فهد ظل يحرك يديه وبكلمات متقطعة يحاول أن يبرر لي ما سمعته، ولكن أنا الأخرى كان علي أن أخرج مسرعة وأن أصمت للأبد..

هذه الجريمة كان منها محمد. فـ محمد هو ابن لفهد وليس لصالح هو ابن خطيئة لا ذنب له سوى أن أمه زانية وأرادت أن يكون ليكون ولا أعرف كيف كانت تفكر، ربما خوفها من العودة لمنزل أهلها وهي مطلقة للمرة الثانية فمصيرها مرتبط بإنجاب ذكر أو لأن جنونها لإنجاب وريث لكل ثروة صالح والتي نصفها بالأصل كان صفقة بيع حنان، أم أنها أنثى قذرة لوثها الزنى والعار.

- محمد ما هو ولد صالح

تقولها عمتي وهي تصرخ..

وأقوم بتعثر من هول ما أسمع لأغلق الباب خوفاً من أن يسمعها أحد!

عمتي تحكي عن جريمة حدثت وكانت هي الشاهد الذي لا يعرفه سوى أصحاب الجرم.. جريمة شنيعة تهتز لها السماء وتبكي لها الأرض، تحكي عن وقوع فاحشة، وجريمة نسب

وصغير ألصق برجل ليس والده ليحمل اسمه

عمتي تتكلم عن حادثة زنى!

أغلقت الباب وهي تصرخ وأنا أبكي..

أحبس صرختي وشهقتي وأكتمها بكف يدي وأجلس خلف الباب لأسده.. لأسد كل ثغر ممكن له أن يبوح بهذه الفضيحة..

الفضيحة التي ستؤدي بوالدي للهلاك وكأني أقدم والدي للموت وأجهز له الأكفان وأعطيه الخبر ليرحل بسلام..

والدي هو ما تبقى لي أنا وحنان وعمتي بعد أن انشغل الجميع وهو أيضاً، لكن يتبقى هو الرجل الحائط الذي أستند عليه كلما قالوا: أين ولي أمرك وابنة من أنت؟ يظل والدي الذي أحمل اسمه وشرفه ولن أدنس هذا.

والدي الذي ظل يبحث لأعوام عن أخ لولده، حتى فقد الولد الوحيد له وظل هو يبحث من جديد عن ابن وحيد.. وكأنه رضي أخيراً بالقدر.. وما قسمه الله له..

والدي الذي تزوج عشرات المرات وطلق عشرات المرات وأذاب قلب أمي مرات ومرات..

والدي الذي نسي حادثة العمى وحادثة الموت وكل حادثة وجع مررت بها ونهضت دون مساعدته.

والدي الذي سيبقى والدي ولن أقدمه هدية للموت فهو يحب محمد أكثر من أي شيء، فكيف سأخبره ببرود قاتل وقلة حيلة أن محمد ليس ابنك وأن خرف عمتي زكية قد وشى لي بهذا!

وأن كل الأحلام قد حان موعدها لتستفيق ولو على فاجعة..

كيف أخبره بهذا كله؟ وعمتي التي أخاف عليها من هيفاء وبطشها وظلمها!

حتى إني لا أغيب عن المنزل لأكثر من ساعة وتركت العمل

الذي جاء بعد عناء فقط لأكون مع عمتي أرعاها وأرعى حنان وابنتها وعد.

ما زلت أذكر أول يوم عمل، العمل الذي جاء بعد ثلاثة وثلاثين خطاباً لطلب وظيفة، وكل خطاب بمكان منفصل عن الآخر.

لقد بحثت بكل الدوائر الحكومية والخاصة ولكن شهادتي لم تؤهلني لشيء حتى إني تقدمت للمراكز الصحية والتجميلية أيضاً لعلي أحظى بوظيفة بسيطة؛ لقد كتبت بسيرتي الذاتية أني لا أعرف استخدام جهاز الحاسوب جيداً ولكني أتعلم بسرعة ولا أكذب وأني بحاجة للوظيفة وليس المال.

وأني كبيرة بالسن وأهتم بمظهري ولكن لا أبحث عن رجل من خلال هذه الوظيفة. . . لقد كتبت أني كنت عمياء وأن نظري يشكو الغبش أحياناً لكني أرى بوضوح عن قرب.

كتبت أني أكملت دراستي بعد تسع سنوات توقف وأني حصلت على شهادتي الجامعية بصعوبة فعقلي صار لا يتقبل كل هذه البحوث والمحاضرات لكني فعلتها وتخرجت.

لقد أخبرتهم أني متفرغة للعمل وغير متزوجة ولا أحد سيسأل عني لو جلست لوقت متأخر بالعمل، فأنا على استعداد أن أعمل بوظيفتين بآن واحد.

كنت أظن أن تكون صادقاً بسيرتك الذاتية سيكون هناك فرصة أكبر لقبولك. . . ولكن لو كنت أنا رئيس العمل لما قبلت بي!.

ومع ذلك، وجد من يقبل بي رغم هذه السيرة الذاتية العرجاء! فقد جاءني اتصال من أحد المراكز الصحية الصغيرة يطلب مني الحضور لإجراء مقابلة تمهيداً لقبولي بوظيفة ما شاغرة لديهم

بالطبع لم أفكر أن يكون هذا الشاغر لمهنة دكتور أو ممرض ولكن تجهزت للمقابلة وكما لو أني سأكون دكتورة بالفعل. .

أذكر أني استحممت مرتين وبكل مرة أضع الكثير من الشامبو وأغسل مفارق جسدي جيداً..

ومشطت شعري ورفعته للأعلى وضعت القليل من المسكار فكانت تكفي لأكون جميلة رطبت يديّ بمرطب عطري من زهرة الأوركيدا فكانت رائحته جميلة، وأجرب كيف أمسك القلم وأوقع هل تبدو يدي قادرة ولا تنزلق؟

فلدي كفان ممتلئان بعض الشيء والأهم من هذا كله أن يدي قد مارست الرياضة طيلة أمس وهي تحاول أن ترسم توقيعاً لا يختلف عن الآخر بك مرة، وأظن أنها وجدت توقيعاً وأتمنى أن لا تخذلني.

لبست عباءتي ولففت حجابي حول رأسي ولبست النقاب ووقفت أمام المرآة وأنا أحمل حقيبتي على كتفي وأقول:

- دعواتك يا أمي

وأصمت..

لقد تذكرت أول يوم دراسي بعد انقطاع دام تسع سنوات عندما خرجت أحمل حقيبة على ظهري وأقول لأمي دعواتك كانت تنظر لي بغضب وتصمت لأنها رفضت عودتي هذه وقد كبرت على مقعد خشبي بين فتيات أصغر مني بكثير، لكن أنا قررت العودة حينها ولم تدعُ لي أمي ولكنها أعطتني ريالين لفسحتي ولم تنظر لوجهي..

كانت تعبر لي عن غضبها بعدم الرد ولكن قلبها كان يخبرني أنها تدعو لي كثيراً وتخاف عليّ كثيراً..

صوت (البوري) من سيارة السائق يستعجل نزولي ويقطع عليّ حديث نفس ما كان لينتهي.. أخرج بكل ما أوتيت من لهفة وشغف وأسمع دعوات أمي بالتوفيق تساندني ولم أتفحص جيبي لأبحث عن ريالين فلقد كان دعاؤها كافياً.

كنت أتسابق مع نفسي ومع كل الطرق لأصل بالموعد المحدد..

دخلت لمكان واسع نظيف يضفي شعورا بالانشراح.. لقد تم تلميع رخامه للتو أشتم رائحة المطهر بأنفي وكأنه الآن، كان أمامي مباشرة لوحة منسدلة من السقف وكتب عليها (الاستقبال) وقفت وألقيت السلام على فتاة موظفة كانت مندسة تحت طاولة طويلة تفصل بيننا، كانت تجلس أمام جهاز الحاسوب وتتقافز أصابعها مسرعة.. نحيلة وقصيرة وأنيقة لها أظافر طويلة مرتبة وخاتم بخنصرها فاتن..

ألقيت السلام للمرة الثانية ولم ترد.. صمتُّ قليلاً وقلت ربما أكون معك هنا بهذا الكرسي الخالي الذي بجانبك وأكون صديقة لك ولن أغفر لك عدم رد السلام وربما أفعلها بشرط أن تعلميني كيف أنقر بسرعة مثلك وكيف أضع المناكير بهذه الطريقة المرتبة دون طلاء اللحم المحيط بأظافري، ولا أريد أن أتعلم كيف أرسم الكحل فهو لا يروق لي لأنه يعطي مساحة كاذبة ويوهمني أني أجمل..

بعد ثوان جاءت إحداهن وجلست على الكرسي الشاغر وأحسست للحظة أن الحلم تبخر قبل أن أحلم به إذاً يوجد موظفة هنا.. لا بأس ربما لي مكان أفضل من هذا..

سألتها مرة أخرى..

- جاء لي اتصال بخصوص الوظيفة..

من هناك من هناك

تقطع حديثي لتشير بيدها دون أن تنظر لي..

ويبدو أن كثيرات سألنها السؤال ذاته.

دخلت لغرفة صغيرة مليئة بالرؤوس السوداء مكتظة بالفتيات وبداخل الغرفة باب آخر صغير يؤدي لغرفة أخرى

أشارت لي إحداهن بالجلوس بعد أن فسحت لي مكاناً لا يكفي لنصف فخذ ونصف اتكاء لهذا قلت لها شكراً بيدي ممتنة لكرمها وفضلت أن أبقى واقفة..

فُتح الباب وخرجت منه ممرضة ترتدي زيّاً بلون فاقع لا يسر الناظرين من الجنسية الفلبينية.. كريهة التعامل تصرخ قبل أن تسألها وتنادي بلا رقم ولا اسم فقط هي قامت بترتيب الرؤوس بالأولوية لمن حضر ولا مانع لو كان التنمر له مساحة كبيرة هنا، فطبيعي أن تدخل إحداهن قد أتت للتو وغيرها ينتظر منذ ساعة..

ما بين نعاسهن تسأل واحدة الأخرى:

- متى جيتي؟

- قبلك

هكذا كانت الإجابة لتضع نقطة ولا مزيد من الأسئلة.

وتسكت هي بدورها ثم تبدأ أخرى بفض الهدوء لتشتكي عدم الترتيب والبطء وأنها ليست بحاجة لهذه الوظيفة وهنا يؤيدها الأغلبية.. وكأن كبرياءهن يأمرهن بهذا.. وكأنهن يطمئن أنفسهن إن لم تحصل أي منهن على الوظيفة فلا بأس ستعاود الكرة مرة ومرة..

جميعهن فتيات شابات كل واحدة منهن تلف عمرها بملف أخضر.. كل سنوات دراستها.. وتعبها وسهرها ومحاولاتها الفاشلة والمتعثرة للنجاح...

هناك من تلفه على شكل أسطواني بين كفيها وهناك من تفرده بحضنها وكأنها تدعوه لينام وهناك من دسته بحقيبتها الكبيرة خشية أن يراه من بالخارج ويعرف حاجتها..

الزمن الذي أصبحت به الوظيفة حاجة وأصبحت لي هروباً..

لا أعرف كم مضى من الوقت لكن أتذكر أني الأخيرة.. لم

أتعارك مع أحد ولم أبادلهن الشتائم ولم أصطف بطابور مزدحم كنت على يقين تام بما كتبه الله لي..

دخلت بهدوء على رجل قد فاض غيظاً ممن سبقنني..

قبل أن يسألني عن اسمي أو يسمح لي أن أخرج ملفي الذي لم يطلبه من الأساس..

- موظفة بالأرشيف. عايزاها؟!

يسألني بنبرة حادة ولم أعرف ما الذي يقصد هل هو يقصد توظيفي بالأرشيف أم يعرض عليّ موظفة تسكن بالأرشيف وينوون الخلاص منها!

أبتسم فلا أقوى على كبح تلك الشقية/ الدعابة/ بداخلي لأسأله:

- إذا الموظفة عايزة ما فيش مشكلة..

أرد عليه بلهجته المصرية اللذيذة.

يبتسم أخيراً ويوضح لي بهدوء المطلوب والعرض الوظيفي الوحيد المتاح والمتبقي وهو موظفة بالأرشيف تصف الملفات وتخرجها ثم تعيد ترتيبها من جديد..

قبلت بها ولم أسأله عن الراتب ولا عن عدد ساعات العمل ولا إن كان هناك لي حاسوب خاص وكرسي له أرجل أربع يدور كلما تحركت..

كان سؤالي هل أبدأ اليوم أنا جاهزة؟

هذا ما جعله يقبلني بسرعة لهذه الوظيفة.. التي لم يسألني والدي عن المسمى الوظيفي لها ولن أخجل منها ولكن كنت أخاف أن يمانع ليس لشيء ولكن لمعرفته التامة أني لست بحاجة مادية لها ولكن حاجتي النفسية كانت أكبر.

كان قادراً على منحي وظيفة معه وربما باتصال على أحد

شركائه ليوفر لي هذا ولكن عذره الدائم أن شهادتي وخبرتي لا تؤهلانني لشيء فهو لن يقصر ولن يجعل من الوظيفة حاجة تستدعي البحث والخروج لها.

لم يكن المكان كما توقعت لم يكن للشمس مدخل سوى من نافذة صغيرة، كانت أعمدة الملفات الحديدية تفوقني طولاً ورائحتها اختلطت بي.. ورق قديم وغبار، إلا أني بكل يوم أضع مرطب اليد بزهرة الأوركيدا ما زلت أحب نفسي وسأحب المكان.. تعاملت مع الأعمدة بأسماء واستطعت أن أحفظ كل ملف وأين مكانه.. كنت أقضي ساعات طويلة وأنا أرتبها وأسأل نفسي ما حال المرضى.. هل تخلصوا من كل هذه الأدوية والأمراض المسجلة بملفاتهم وعاشوا أخيراً سعداء؟.. هل يفكرون بالعودة هنا لإلقاء التحية مثلاً!

عندما أحببت المكان المظلم بإنارته المؤذية للنظر.. أحببت عملي.. أصبحت أنتج أكثر وأعطي أكثر حتى جاء خبر ترقيتي لأكون بالأعلى بالمكان الذي كانت تجلس به النحيلة الجميلة وحاسوبها وكرسيها الذي يدور أيضاً..

لكن خرجت من العمل معتذرة دون أن أكتب استقالتي أو حتى أن أحصل على بقية حقوقي..

ودعت المكان وكأنه منزلي ودعت أصدقائي الأعمدة والملفات والحارس وعاملة النظافة وحتى الممرضة الفلبينية التي أصبحت صديقتي فيما بعد..

خرجت من أجل عمتي بعد أن أصيبت بالخرف.. بعد أن أصبحت بحاجتي، بعد خوفي عليها من تصرفات هيفاء التي لم أجد لها تبريراً ومحاولة إيذائها..

فضلت أن أكون جليسة عجوز خرفة تتحدث، خير من أعمدة صامتة أتحدث لها..

منذ ذاك اليوم لم أفارق عمتي.. حتى إني أنام معها ببعض الأحيان حينما تستيقظ من حلم مرعب أو كابوس تحكي لي عنه طويلاً وكأن أحدهم حاول خنقها..

كنت أقرأ عليها المعوذات وأخبرها أن لا أحد يحاول قتلك ولا أحد هنا.. أضيء الأنوار كلها لتتحقق بنفسها لكنها تمسكني بكل قوتها وتطلب مني البقاء.

كنت أظن أن عمتي عادت طفلة من جديد وهي بالفعل تظنني أمها..

لهذا أشاركها الوسادة ذاتها وأحضنها وننام..

صرت أخاف من كابوس عمتي، وبعد تهديد هيفاء لها من سنوات.. صرت أخاف أن تجرؤ هذه اللعينة على فعل فعلتها وتكمل سلسلة جرائمها

لهذا فكرت أن أصرخ بوجهها وأخبرها أن سرها القذر صرت أعرفه وأنها إن فكرت في إيذاء عمتي فسوف أخبر والدي بكل شيء..

فكرت أن أصفع فهد لحيوانيته وإقباله على هذا التصرف وتكتمه عن الحقيقة، وكنت أراه كل شيء، كنت ائتمنته علينا وبدخوله للمنزل وجلوسه لساعات.. الآن فسرت نظراته لأخي محمد وحبه له، فسرت شروده كلما لعب هذا الطفل أمامه.

فكرت ليس فقط بصفعه بل بكيف أتخلص منه من جديد

هل تشعرون بما أشعر!

آخذ نفساً عميقاً

النفس الذي يوجعني بشهيقه والزفير..

النبض الذي ما عاد ينبض وأني على قيد التمني لا الحياة..

اللحظة التي تسبق بكاءك هي الأكثر وجعاً والأكثر ألماً.

فهد

القدر الذي يلوح أمامي..

الخطوة التي تحاذي خطوتي

الكلمة التي لا أنوي البوح بها

الضمير المستتر الذي تفضحه عيناي!

كنت أظن أني تجاوزت مرحلة الحب ومرحلة الحياة ولكني وجدت أني صالحة لكل شيء إلا الحب والحياة..

صالحة لأكتب لك عما أشعر وبصباح اليوم الآخر أُقبل زر الحذف وأنسى كل شيء وأمارس يومي كفتاة لم يمس قلبها من الوجع شيء

كنت أظن أن تجاهلي لاتصالك هو الحل لتخليصي منك.. وأن خاصية البلوك تخدمنا عندما نضطر لها كحل أخير.

الحل الذي أشعر معه بقوتي وكأني أغلقت الباب بوجهك وأنت تنظر لعينيّ، وأخرستك وأنت تتحدث وكسرت يدك وأنت تلوح لي وخنقتك وأنت تحاول مناداتي.. وبالواقع لا أفعلها..

البلوك يظهر شجاعتي وخلفه الكثير من وجعي وحنقي.

يهدئ من غضبي عندما يجعلك تبتعد قسراً وأحاول حينها أن لا أبحث عنك من جديد..

هناك من لا يستحق محاولة أخرى..!

نهاية الحب هي الهاوية التي تقف على حافتها وتنتظر شيئاً يحدث

ربما جسراً من غيم يتمدد أمامك لتعبر

وربما أجساد من سبقونا للهاوية تلتحم كنهاية النهاية!

أشعر بفراغ بفمي

بأغنية مات لحنها

برماد يسد فراغات أسناني والكلمات

حتى صوتي تغير!

لا أعرف ما الذي ينتظرني فيما بعد

كل الذي أعرفه أني بحاجة ماسة لأستر عورة جرحي

كم أكره ذاك الحزن الذي يأتي بصورة هزيمة.. يحاول تهشيم آخر تمثال لك!

تمثالك الذي صنعته بقرار متعجرف!

ربما الحافة التي أقف عليها الآن حادة ومتجعدة وموجعة

موجع أن تموت مرتين

وأتمنى أن تكون الأخيرة!

صداع..

فاليوم كل الأشياء سوف تنتظرني لحين أن يزول هذا الصداع وهذا الأرق ولعل رأسي يهدأ قليلاً..

تطرق وعد باب غرفتي

- ماما ورد عندي واجب إملاء

- بعدين

تصمت صغيرتي وكأنها متعجبة من ردي وأيضاً من إقفال الباب فلا أذكر متى آخر مرة أغلقت بها باب غرفتي المشرعة للجميع، حتى لقط الجيران الذي يتسلل لمنزلنا فقط لينام على سريري ويترك رائحته النتنة ويغادر المكان.

لا أحب القطط وأيضاً الرجال فجميعهم لهم الصفات ذاتها عندما يتعلق الأمر بالأنثى،

يتبعها طالما هي لا تعتني به ولا تريده وما أن تحبه حتى يفتش عن أنثى أخرى يلاحقها ويحدق بعينيها طالباً اللجوء العاطفي..

هل ما أشعر به له علاقة مباشرة بحكمي هذا!

ربما.

باب غرفتي من جديد يطرق إنها الخادمة جمايكا وبأحرفها العربية الملتوية تبين لي أن عمتي زكية تبحث عني..

وحنان تجلس عند باب غرفتي من الصباح تنتظر أن أضم الخيط بالإبرة..

واتصالات من السائق ومن دكتور حنان ومن أرقام مجهولة أصحابها ومدن لم أزرها بحياتي وبالتأكيد هم أصحاب الدعايات؛ لا مانع أن يتصل عليك أحدهم قبيل الفجر ليخبرك أنه من الشركة الفلانية ويعرض عليك منتجاً كمكنسة كهربائية ويسرد لك كل مواصفاتها.. بالعادة أستمع لهم ربما لحاجتي الدائمة لشخص يستمع لي وربما لأجد أخيراً من يتحدث لي طويلاً وباهتمام..

وما أن ينتهي كلامه حتى أخيب ظنه بجوابي:

- كيف أصبح بمواصفات هذه المكنسة؟

أود فعليّاً أن أكون مكنسة كهربائية وأجد من يستميت ليثبت أني بهذه القدرة والكفاءة العالية من الجودة، وأن لي ضماناً يدوم عشر سنوات ضد أي خلل فني وقادرة على ابتلاع كل شيء دون أن أتوقف وأغتص بالتراب دون أن أكح مثلاً، وأن لي أربعة أذرع يمكن التبديل بينها واحد للشطف والآخر للغسل وآخر ينحصر بين الشقوق الضيقة وآخر ينزوي مع الزوايا

وبندس تحت السجاد!

مكنسة تقوم بكل هذا بآن واحد ثم إن لديها القدرة على الصراخ طوال الوقت دون أن يسألها أحد عن سبب صراخها!

ثم أسأل المتصل المندوب

- كيف تُجبر على الحديث عن شيء لا تحبه وأجزم أنك لم تمتلكه ولا تصدق به!

كنت أسأل نفسي ولا أجد إجابة مقنعة!

أتمدد الآن ورأسي الممتلئ بالأحداث يتمدد هو أيضاً.. أنظر للسقف أبحث عن شرخ به أو حتى ثقب لأصرخ ويبتلعه هذا ولا يشي بصراخي لأحد!

- ليتني مكنسة

أقولها ولا أبتسم

بالأمس كان محمد الصغير أخاً لي..

وبهذا الصباح هو لا يمت لي بصلة!

بل هو طفل خطيئة بلا خطيئة

أسمع الآن صوت غناء أبي لمحمد وهو كالعادة ممتلئ بالحياة والحب لهذا الصغير، حتى إني ما عرفت أن والدي يحفظ قصائد إلا عندما قالها لمحمد.. لم يغنِّ لي والدي قط..

هو لم يغنِّ

ولم يُقبلني

ولم يحضنّي

أشعر بالبرد بأضلعي الآن..!

أدس رأسي تحت اللحاف وأنوي النوم أغمض عيني بتثاقل فالجو هادئ بعد أن انطفأ غناء والدي وصوت ضحكات محمد

وأيضاً يبدو أن وعد قد تمكنت من حل واجب الإملاء وحدها.. لا بأس إن نسيت الهمزة فما زلت أخطئ أنا بها.. علاقتي بالهمزات مثل علاقتي مع أي موضوع يحيرني، يخص شخصاً يهمني ودائماً ما أجتهد وأنصب له همزة على رأس ألفه أرفعه بها ولكن الصواب كان بكسر الألف..

أكتشف هذا بعد فوات الأوان.. فكم مرة رفعنا من أشخاص وكان الأولى كسرهم.

- اهدأ

أقولها لعقلي..

أغمض مرة أخرى عيني وأرى هيفاء بسوادها تلوح لي، أستعيذ بالله وأغير اتجاه نومي أنقلب للجهة الأخرى ولكن لا تزال أمامي وتضحك، أعرك عيني لعلي أنتزعها منها لكن صورتها تتضح أكثر وكأنها تنظر لي بنظرة مكر.

أجلس على فراشي أنظر للساعة، وإذا الساعة تشير للثالثة عصراً إنه موعد شاي عمتي زكية والبيت هادئ فالخادمة انتهت من عملها وترتاح بغرفتها، والدي أيضاً يأخذ قيلولة، وصغيرتي وعد تتابع برنامجها بغرفة والدتها

أنسى كل هذه المواعيد الدقيقة لهذا المنزل الذي يسكن بداخل ساعة..

وأرمي برأسي مرة أخرى على المخدة.. أرفع الغطاء على وجهي وإذا بوجه هيفاء يلوح لي من تحت الغطاء من جديد.. هنا أنفض الغطاء وأرميه على الأرض أجمع رجليّ لصدري وأحتضنهما وأدس رأسي بينهما وأغمض عيني وإذا هيفاء من جديد!

يا ألله

ماذا تريد هذه اللعينة مني!

حتى بعزلتي تطل برأسها

ثم أتذكر

عمتي!

هدوء المنزل!

هيفاء!

انتفضت مسرعة للخارج.. ركضت حافية القدمين، بثوبي الشفاف الذي يصف جسمي والذي لا يصلح أن يراني به أحد، وشعري المنكوش وذراعي العارية دون أكمام وأنا التي لم يرَ أحد لون جسدها إذا كان بدرجة وجهها نفسها أم تحتفظ ببقعة داكنة بمكان ما.

لكن كان تهديد هيفاء لعمتي يرن بمسمعي.. خفت على عمتي من بطشها..

ركضت وكأني أجرب قدميّ للمرة الأولى.. لا أذكر كم درجة قفزت ولكني وصلت خلال ثوان للطابق الأرضي حيث غرفة عمتي.. فتحت الباب بقوة، وإذا بعمتي تنظر لي بوجهها الذي يجلب لي العافية دفعة واحدة ونظرتها المنكسرة بآن واحد وتلف حجابها الأسود على رأسها، ابتسمت تلقائيّاً، وللمرة الأولى لم تسألني من أنت ربما تعرفت علي أخيراً.

تمسك مقصّاً صغيراً وتحاول أن تقلم أظافرها التي نسيت أن أقلمها لها منذ شهر.

ركضت نحوها وانحنيت جاثية على ركبتي، أخذت منها المقص الصغير ووعدتها أني سأفعل هذا، حضنتها وأنا أردد: الحمد لله، بكيت وأنا أشتمها وكأني للمرة الأولى أفعلها تربت على ذراعي ثم تخلص نفسها من حضني فلم تعتد عمتي على الأحضان ولكني كنت أود أن أتحسس تلك الضفيرة النحيلة التي تخبئها دائماً تحت ملابسها، لقد وجدتها مرة عند آخر

عناق بيننا منذ أعوام، لا تظهر عمتي هذه العاطفة وكما هي منذ أن عرفتها..

أنظر لوجهها وأقول:

- موعد الشاي الآن ها

وأعدها بألذ كأس شاي ولم تتذوق مثله من قبل لكن كان عليّ أن أبدل ملابسي أولاً، خرجت من غرفة عمتي وتركت الباب مفتوحاً وكأن حكاية الخوف بدأت تلازمني بالفعل.

هممت بالصعود للأعلى وإذا بوالدي يهم بالنزول وتتبعه هيفاء، نظر لي باستغراب من هيئتي وهندامي وملامح البكاء على وجهي، أعيني المتورمة وصوتي ثم الأرق الذي يلازمني، وما زاد الأمر سوءاً هو ثوب النوم الشفاف وأقدام حافية وأكتاف عارية..

سألني بتعجب:

- فيك شيء؟!

كنت أنظر لهيفاء وأرد عليه:

- لا

وأنا أحضن صدري لأستر نفسي

تعجب من رجفة يدي واحمرار عيني وتردد جوابي ورغبتي بإنهاء الحديث سريعاً،

بالواقع أخجل أن يراني أحد هكذا فكيف بوالدي!

نزل أبي متوجهاً للخارج وبقيت وجهاً لوجه مع هيفاء

أحدق بعينها وهي تمضغ العلك وتنظر للسقف بسخرية حمقاء،

وكلما حاولت تجاوزي لتكمل الأدراج نزولاً وقفت أمامها أسد المكان.

نقف على الدرج بمنتصفه وكأنه منتصف الحقيقة التي بدأت تظهر. خرج والدي ها أنا أسمع صوت الباب يغلق، وكأني الآن أصبحت قادرة على الكلام فاحترام والدي وحضوره يعني لي الكثير.

نغزت كتفها بنفس الطريقة التي فعلتها لعمتي وقلت:

- حقيقتك ظهرت وعرفت كل شيء..

تسكت بارتياب وارتباك وتحاول الثبات لتقول:

- أي حقيقة التي تتكلمين عنها؟

ثم تردفها:

- أنا ما أخاف..

أواجهها مرة أخرى وعيني بعينها

- عمتي شاهدك الوحيد والحقيقة بتوصل لأبوي كاملة.

لا تفكرين تقربين منها

أنا آخر شخص يخاف منك

كل هذه الكلمات والجمل قلتها دفعة واحدة وبمثل هذا الترتيب وبكل مرة كنت أغرس أصبعي بكتفها أكثر وهي ترتبك أكثر وتزداد خوفاً وارتجافاً حتى ظننت أنها ستسقط بلحظتها من فوق الدرج.

حركت كتفها بقوة وأكملت طريقي لغرفتي لأبدل ملابسي سريعاً وأعد الشاي لعمتي،

ولم ألتفت لهذه اللعينة مطلقاً لقد أعطيتها تحذيراً كفيلاً بجعلها تبتلع لسانها ولا تفكر بإيذاء عمتي.

دقائق فقط غبتها لأبدل ملابسي لم أرتب غرفتي وتركت كل شيء على حاله حتى ثيابي التي بدلتها كانت لا تزال على الأرض بمنتصف غرفتي، ونزلت من جديد ولم أجدها على

السلم فقلت لنفسي ربما هي بدارها تنتحب فعلتها الشنيعة وربما تفكر بالاتصال على بطلها الأخرق فهد لتخبره الحقيقة وما حصل لها..

نزلت بهدوء متجهة للمطبخ، لا أعرف ما الذي جعلني ألتفت لغرفة عمتي زكية لأجد الباب مغلقاً..!

أكلمت خطواتي للمطبخ أخرجت إبريقاً وفتحت صنبور الماء لأملأه.. وأنا أقول بنفسي: لقد تركت الباب مفتوحاً.. ما الذي أغلقه؟! وخصوصاً أن عمتي تكره الأبواب المغلقة وتجاهد من أجل فتحه إذا أغلقه أحدهم فهي ضعيفة القوة لا تكاد تقدر حتى على تمشيط شعرها فكيف تقوم لتغلق الباب!

أشعل عين البوتاجاز أضع الإبريق فوقه أحاول تثبيت اتزانه.. شيء ما يخنقني يتسلل لأصابعي يجعلني غير قادرة على التركيز أشعر أنه يكتم أنفاسي لا أعلم ما هو، أترك المطبخ وأتجه مسرعة لغرفة عمتي زكية، أتعثر بالسجادة المطوي طرفها وكأني لم أتعلم بعد كيف أتعامل معها رغم أنني تصالحت قديماً مع مثلها بمنزلنا القديم عندما كنت عمياء، أنهض على عجل وأواصل الركض لغرفة عمتي أفتح الباب، هناك شيء ما يسده من الخلف شيء ثقيلٌ، يحول دون فتحه.

غرفة عمتي بلا مفتاح، لم يكن هناك أي احتمال لانزلاق القفل بداخله هو دائماً مفتوحٌ، يحتاج مني لجهد أكثر، أفتح الباب محاولة أخرى من جديد وأنادي:

- عمة

عمة

بخوف أكثر.. بتقطع مجهد

وأحاول أن أدس عيني لتسبقني هي بالدخول لعلي أرى ما الذي يسد الباب ما الذي جعله ثقيلاً هكذا!

من زاوية الباب المفتوحة بضيق كان سرير عمتي مواجهاً للباب تماماً، رأيت هيفاء فوق عمتي زكية تعارك وجهها بوسادة كبيرة تحاول خنقها وكتم أنفاسها، هي تحاول قتلها!

أصرخ بملء حنجرتي: هيفاء! أناديها ثم أصرخ لعلها تتوقف لعلها تلتفت، يئست وعدت أنادي على الجميع حتى الأموات ناديتهم

- أمي

محمد

أبوي

جاميكا وحنان كنت أصرخ وأرى جرمها بعيني وأرى أرجل عمتي التي تحاول أن تنفذ ويديها اللتين تلوحان بالهواء وتحاول فك هيفاء لكن هيفاء لم ترتدع من صراخي ولم يسمعني أحد غيرها!

تحولت لوحش قد جن بالفعل دفعت الباب بكل ما أوتيت من قهر وخوف وتمكنت من الدخول لأتعثر بكمية الوسائد والطاولة الوحيدة الكبيرة والقريبة من الباب والتي استعانت بها لتسده مررت بصعوبة وترك الباب شروخاً ودماء على يدي بكل المحاولات التي كنت أدس بها يدي لأصنع ثقباً يسعني للدخول

مع دخولي كانت حركة عمتي قد هدأت ما عادت تقاوم الموت وكأنها استسلمت بالفعل ولا تزال هيفاء تعارك وجه عمتي بالوسادة اتجهت مسرعة أخلص عمتي وأشد هيفاء من شعرها وأعض يدها وأسحبها لقد فعلت كل شيء لأخلص عمتي وبالفعل نهضت هيفاء وهي تنفث لعابها خارج فمها وهي تقول:

- مات الشاهد ومات السر معه

ثم تقول بصوت ماكر مرتجف:

- قلت لك بذبحك وسويتها

وتضحك بطريقة الخائف المنهزم والذي يظن أنه فعلها ونجا

كنت أصرخ بكل ما أوتيت من صراخ وأضرب وجهي ثم التفت لأضرب هيفاء ولم أجدها.

لقد تعلمت الشتم والقذف والسب بتلك اللحظة

أنظر لوجه عمتي وعيناها معلقتان للسماء ووجهها مزرق ومحمر خليط ألوان مخيف وثغرها مفغور

أصرخ بوجهها أصرخ للسقف للجدران أصرخ للباب الذي لم يفتح لإبريق الشاي الذي لم تشربه في الوقت الذي تحبه

أصرخ بوجه الخادمة التي تحدق بوجهي وتصرخ هي الأخرى بوجه حنان التي تتشبث بثيابي وتبكي خوفاً أصرخ بوجه وعد التي هربت من صراخي وهي فزعة

صرت أصرخ وأبكي وأضرب كل شيء حولي أبحث عن هيفاء القاتلة وأنا أنادي بكل لفظ بذيء عليها.

ثم أعود لعمتي وأضع فمي على فمها أعطيها من هواء صدري، كنت أحاول أن أهبها الهواء لتعود للحياة ثم أضغط صدرها بمحاولات فاشلة وأعود وأقبل وجهها وأنادي عليها بصراخ:

- لا تموتي

يمه لا تموتي..

خرجت من غرفة عمتي لأفعل شيئاً لا أعرف ما الذي يتوجب عليّ فعله لكن فكرت بالصراخ بالشارع للجيران للنوافذ المغلقة كنت أبحث عن أي أحد يفعل لعمتي شيئاً.

وإذ بوالدي يفتح باب المنزل وينظر لي ويسمع صراخي

ليتجاوزني ويدخل فزعاً لغرفة عمتي وهو يردد:

- لا حول ولا قوة إلا بالله

لا حول ولا قوة إلا بالله

جلست بمنتصف المكان بمنتصف الصالة ومنتصف المساحة ومنتصف البكاء أجلس، جلوس المكلوم المصدوم المفجوع وأنادي يا ألله وأنادي يا أمي وأنادي مرة أخرى يا ألله.

نهضت مرة أخرى لأتبع والدي بصرخة واحدة كنت أود أن أخبره بكل شيء، لكن أنا لا أملك إلا الصراخ فكل الكلمات فقدتها بهذه اللحظة.. كنت أضرب على ظهره بقوة وأقول له عمتي ثم أسحب يده وثوبه وأصرخ

- عمتي...

وهو يقبل جبينها ويحاول أن يغلق عينيها ثم يغطي وجهها بغترته ويحضن رأسها ويبكي هو الآخر.

هذه المرة الأولى التي أشاهد بها والدي يحتضن عمتي بل ويقبلها وربما عمتي للمرة الأولى التي تشتم بها رائحة والدي عن هذا القرب ولكنها قد فارقت الحياة قبل أن تحظى بهذا الالتصاق وكأن الوداع الحقيقي هو بالموت والعناق الحقيقي هو بالفراق وكل ما عداهما غير ممكن ويستحيل.

يرفع والدي هاتفه لأذنه بيد مرتجفة ليتصل على الإسعاف ويطلب من الجميع أن ينصرفوا وبنبرة حادة وصوت جهوري لم أسمعه من قبل ثم يمسكني من يدي بقوة ليقول لي:

- ليه يا بنت ليه؟

- الله ياخذك ويريحني منك..

أنظر له بعين مفجوعة ووجه متعرق وأنا أبكي مرة أصرخ مرة وكل كلماتي لا يسمعها وكأن بالفعل كل كلماتي صراخ.

- يا أبوي.. هيفا هيفا... أبوي..

- اخرسي هذا اللي جاني من البنات.

يرد علي بهذه النبرة وكأنه يود أن يخنقني الآن وكأن هناك عاراً ملتصقاً به وكأني أنا من ارتكب الجريمة وليس زوجته الخائنة هيفاء!

هل قلت كأني أنا من ارتكبها؟!

بالفعل هذا ما أوحاه لي تصرف والدي الذي رجع بغير موعد رجوعه ودخل وهو مذعور وكأنه يعرف كل شيء وإن كان ما يعرفه غير مكتمل الجوانب مبتور الحقيقة لكنه كان يعرف جيداً أن عمتي ماتت مقتولة.

أميطوا وجوهكم وبقاياكم عن طريقي..

سأغادركم..

ودفنت عمتي..

ولم أحضر عزاءها ولم أستقبل النسوة بهمزاتهن ولمزاتهن بكيف ماتت ومن قتلها.. عن حياتها التي لم تهنأ بها ولم تتزوج لتنجب من يدعو لها وربما من يبكي عليها بصدق بعزائها، عن شبابها الذي ضاع بسبب أخيها وبالواقع هو دس بجيب قلبها، هي عاشت بالحب له لآخر يوم، كانت ريحانتها على وسادتها تخبرها أن عمر الحب يمتد ولا يشيخ ولا يصاب بالخرف.. عاشت عمرها بقصة وحدها كانت هي البطلة وعيسى البطل دون أن يشاركهما أحد الرواية ودون أن يكتب أحدهما النهاية ودون أن يموت الحب بل عاشت كل تفاصيله حلماً.

وأجمل الحب وأصدقه من عاش حلماً وبقي كذلك دون مساس، فالأجساد لا تصنع الحب بل ربما تنهيه.

ماتت عمتي ولم تستمع لما قالوا بعد رحيلها.. ماتت وأنا ابنة قلبها كما وعد ابنة قلبي، لقد أخبرتكم من قبل كيف تنجب القلوب كما تفعل الأرحام.. ماتت حبيبتي ولم أودعها ولم تشرب كأس الشاي الذي وعدتها أنه سيكون مختلفاً.. ماتت حبيبتي وغاصت كل الحكايات معها وكل الأسرار.. الآن ما عاد أحد يخاف منها ما عاد الخرف شبحاً يهدد كل النفوس التي أخفت جرائمها الصغيرة وباحت بها عمتي على هيئة حكاية تبدؤها ببكاء وتنهيها بضحكة..

ماتت شريكة أوقاتي ولم أخبرها بعد أن فهد قد خرق جدار قلبي من جديد، صنع ثقباً ليمد يده منه ويتحسس نبضي بكل ليلة.. لم أخبرها أنه تسلق روحي خفية وظل يلوح لي من بعيد، لم أخبرها بعد أنني أحببت هذا الرجل من جديد بعد أن تخلصت منه بصعوبة ومضيت بحياتي بعيدة عنه، الرجل الذي ارتكب خطيئة ولم يخبرني بها حتى فاحت بها ذاكرة عمتي، الخطيئة

التي لا أغفرها لرجل يخون، لرجل يكذب، لرجل يحوم حول منزلنا ورائحة الزنى تفوح من ثيابه!

ماتت عمتي ولم أحضر عزاءها ولم أستقبل حتى النسوة الوشايات المتهمزات ولم يقل لي أحد البقاء لله ولم يربت أحد على كتفي ليقول أعانك الله لم يحضنّي أحد لأجد سبباً للبكاء من جديد..

لم أحضر عزاء عمتي ولقد حضره كل أخواتي اللاتي لا تربطهن بعمتي سوى علاقة الدم.. العلاقة التي يظنها الجميع قوية لكنها فاترة، فاترة جدّاً، حتى إنهن تباكين وأكاد أقسم إنهن ذهبن لمنازلهن مسرعات ليكملن الفيلم الكوميدي الذي كان على وضعية ستار لحين عودتهن.

فاجعة عمتي لم تفجعهن، بل الفضيحة والخوف من العودة من جديد لمعتقل والدي أقصد منزله، الفضيحة التي صارت تلاحقهن بالأسئلة عن سبب وفاة عمتي وسبب اختفائي.

هل قلت اختفائي؟!

أين أنا من عزاء عمتي..!؟

أنا هنا..

أغمضوا أعينكم..

نعم بهذا السواد أنا..

ما عادت الحياة تفاجئني بشيء لم أعتدْه

كل شيء بدا لي مألوفاً

حتى إن الجميع لهم الوجه ذاته

بالخيبة، والخذلان، والرحيل!

عليهم أن يبتكروا طريقة أخرى

ربما تجعل الأمر أكثر إثارة لنا..

ضباب وكأن كل ذكرياتنا ضباب.. هكذا بدت لي الرؤية اليوم، بهذا المكان المزدحم بالأحاديث والضحك والبكاء، أنا هنا مع ثلة مجرمات لا أمت لهن بصلة سوى أني تحت بند قاتلة!

هل يبدو لك هذا غريباً؟

نعم هذا ما آلت إليه ورد!

باليوم الذي دخل به والدي مسرعاً ويردد لا حول ولا قوة إلا بالله وهو مفجوع والفزع بعينيه، كانت هيفاء قد اتصلت عليه بعد فعلتها وهي تلهث وتبكي وتولول وتقول له:

- لقد قتلت ورد أختك زكية..

وجلست تذكره بثوبي الشفاف الذي صادفني به على الدرج وشعري المنكوش وعينيّ المتورمتين بالأرق والمزاج السيئ ورجفة أطرافي حياء من والدي.. لكنها كانت دليل إثبات تهمة لتقول له سيناريو لا يصدق ولكن صدقه، حتى أنا أصدقه الآن وأكذبني وأكذب عينيّ وحتى حديث عمتي وقصة الزنى وأكذب أيضاً تهديدها لعمتي وأيضاً محاولاتها السابقة لقتلها.

نعم أصدقها حينما وجدت أن الخادمة تشهد بأنها رأتني فوق عمتي أقتلها!

وهيفاء هي من اكتشفت جريمتي هذه من بكاء الخادمة وصراخها!

وأيضاً تقول لديها شاهد آخر لا أعرف من هو ولكن يبدو بحجة أضعف!

وعندما أمسك والدي بيدي وصاح:

- ليه يا بنت ليه؟

كان ينظر لمعصمي الذي به خطوط ثلاثة من الباب الضيق الذي حاولت العبور منه لإنقاذ عمتي وكانت هذه الجروح هي

شاهداً آخر على أني القاتلة حيث أكد والدي أنها أظافر عمتي وهي تحاول الفكاك من خنقي!

بالوقت الذي اتصل به والدي على الإسعاف كانت الشرطة قد وصلت..

أحتاج أن أتنفس قبل أن أكمل لكم

الظلم يخنق.. وأنا أختنق..

سجانات

قيود حديدية

يزمونك من تحت الإبط لأعلى لتبقى أرجلك تلوح بالهواء ومرة لتمشط كل الأرض بأصابعك

دخلوا وفاجعة والدي وحيرته وخوفه.. الجيران والناس والفضيحة هذا ما ردده والدي وهو يتوسل لضابط الشرطة أن يتركني ليصحبني هو بسيارة ولا داعي للسجانات ولا لسيارة محمية بالحديد على نوافذها.. لا داعي لتكبيل الأيادي.. وخروجها من الباب لتلتهمها كل الأعين.. كان يقول لهم:

- البنت مريضة

ـ البنت ما هي مجرمة..

نعم لست مجرمة ولكنك أول من صدق هذا يا والدي!

كنت أصرخ بلا صوت وعيناي تحدقان بكل الوجوه أتلفت كرأس طير بكل الاتجاهات ليس عطشاً ولكن أريد وجهاً واحداً ينصفني.. يخبرهم بصوته أني لم أقتل عمتي، يخبرهم من القاتل الحقيقي، فلا صوت لي ولا روح أشعر وكأني سأفارق جسدي بأي لحظة وأتركه معلقاً يفعلون به ما يريدون ما عدت أهتم، انطفأ كل الصراخ بصدري من فاجعة أمري، كل الألوان تحولت للرمادية بتلك اللحظة حتى أشعر ببلل بثيابي لم أدرك ما فعلت ولكن الخوف يفعلها ويدرك تماماً ما حدث.

صفدت الأيادي والمجرم طليق!

ركبت سيارة لم أركبها بحياتي يعزلني عن العالم الكثير من الأقفاص.. شعرت بكل الطيور الحبيسة وكم نحن ظالمون، مررت بالشارع نفسه بشجره الممتد الذي يعرفني من سنوات وأتابع نموه منذ أن كان شجيرات صغيرة وأعرف متى يأتي المزارع ليقص أطرافه المتدلية أعرفه جيداً ويعرفني أيضاً،

كنت أود لو يسألونه عني لعله ينصفني لأنه يعرفني، أعمدة الطريق ولوحات الإعلانات وحتى بائعة الورد التي تقف عند الإشارة وتلوح لي مرة بمنديل ومرة بوردة.. ومرة بعلبة ماء، قلت لها يومًا كوني أمّاً صالحة بكل مرة أشتري كل الورد وكل علب المناديل لتعود مبكراً للبيت لأطفالها، وعندما جاءت لي وعد طلبت منها أن تتمنى لي أن أكون أمّاً صالحةً ربما طلبك الدعاء من ذوي الحاجة كان خطأ، فلا شيء بدون مقابل وأنا لم أدفع لها ثمن الدعاء، لهذا لم أكن أمّاً صالحة لوعد التي تركتها تفترش الأرض باكية مرة ومرة أخرى تتوسل للسجانة أن يبقوني معها،

حتى إنهم سمحوا لها بعناق وتحسبه الأخير لكن همست لها بأني سأعود وسأحل لها واجب الإملاء.

لا أظن أنها سمعت كلامي، لأنها استمرت بالبكاء، لكني قلت كلاماً كثيراً مشابهاً

قلت إني أحب عمتي وإني لم أقتلها وإني سأعد لها الشاهي الآن، وإن موعد علاجها بعد نصف ساعة وإن الدفتر المليء بقصصها معي، وإني اشتريت لها قلماً آخر وكنت أنوي أن أضعه بغرفتها حتى أسهر معها وأكتب كل خرفها هذا..

كنت أقول لحنان إياك أن تصدقيهم فلا يهمني أحد منهم، إياك أن تفعليها وينالك خبثهم

كنت أقول كل شيء ولكن قلته لي أنا أولاً ولم تعد هناك الحاجة لقوله بصوت عال!

الساعة التاسعة صباحاً اليوم الثاني من شهر ديسمبر

لا أظن أن من المهم جدّاً معرفة اليوم والشهر وحتى في أي سنة ميلادية نحن، صرت أحفظ هذا الوقت جيداً.. أقصد الساعة لا غير، الساعة التي يستدعيني فيها الضابط لمواصلة التحقيقات وكأني الصفحة الأولى بملفه الخاص، عندما أسمع

خطا السجانة بوقعها الكبير وكأنها تحدث حفرة بكل خطوة، لا أعرف لمَ تتصنع كل هذا لتشعرنا بالرعب! وكأنها تستمتع بكل مرة تفعلها، تقترب من الزنزانة التي تجمع القتلة وربما المهربين أيضاً.

أجلس أمام الضابط ليسألني بكل مرة عن اسمي وعمري هو يعرفني جيداً فاسمي يبدأ بالبكاء وعمري ينتهي به.

ما كنت قادرة على الإجابة ولا الكلام، كان بمقدوري الخلاص لكن هناك ما هو أعظم.. عندما تشهد واقعة قتل لشخص مقرب منك وبمنزلك ويحاوطك الظلم لتتهم أنت بالقتل، كلها أشياء كفيلة بأن تجعلك خارج إطار الاستيعاب ومدمراً نفسيّاً ولا تجيد الكلام بهدوء فكل حديث يبدأ بشهقة وينتهي بالبكاء.

لهذا هو يستند للشاهد..

نعم هناك شاهد أحمق أخذ قيمة شهادته مقدماً.. شهادة زور مدفوعة الثمن وربما كلفت هيفاء الكثير فالخادمة من شدة الكذب الجميع يصدقونها..

كم مرة يجب أن تقسم وهي لا تعرف القسم ثم إنها من ديانة أخرى لكن تجد بالقسم مثلما يجد الكثيرون (الخلاص).

لا أعرف كم مرة سألها والدي وكم مرة رجاها أن تقول الحقيقة، كم مرة جلس أمامها يتوسل لها أن تحكي الحكاية مرة ومرتين.. كان والدي يبحث عن مخرج لي مما أنا فيه، هو يؤكد قتلي لعمتي وكيف يفر مشهدي ذاك من أمام عينيه!

ثوبي الخفيف وشعري المتطاير وعيناي المتورمتان وخوفي، ثم جروح يدي التي كانت شاهداً لوالدي على جريمة لم يشفع لي القسم أن أفر منها..

كان والدي يستمع للخادمة عشرات المرات وهي تروي له الحادثة، يستمع لهيفاء اللعينة آلاف المرات وهي تحكي له

قصة بطولتها باكتشاف جريمة ورد وتحمد الله أنها أحسنت التصرف،

الخائن دائماً يتحدث عن الوفاء

والمجرم يتحدث عن الطهر

والقاتل يتحدث عن الأرواح البريئة التي يسعى لحمايتها..

كيف لم يفكر أبي بهذا!

كان يستمع لهم جميعاً حتى للمحامي الذي كلفه الكثير، هو ينوي تخليصي لكنه لم يستمع لي ولم يجرب هذا، هناك حيلة يدبرها المحامي مع والدي للخروج من السجن.. حيلة حدثني عنها المحامي على شكل أسئلة ووحدي من فهمها

حيلة صناعة المجانين بطريقة فاخرة، معدة ومقادير دقيقة!

صناعة المجانين

(كنا بخير لولا الآخرون)

*وجدت هذه العبارة مكتوبة على أحد جدران المصحة النفسية

هنيئاً لي..

لقد نجحت حيلتهما... واستطاعا أن يصنعا مني أنثى مريضة نفسيّاً ومختلة عقليّاً.. لا أعرف المسمى الحقيقي للمرض الذي اختاراه لي بعناية، ولكن أتوقع أن يليق باسم العائلة لتكون ابنتهم مختلة قاتلة مسجونة بسجن نسائي

لتكون قاتلة مختلة عقليّاً بمصحة نفسية!

هنيئاً لوالدي بهذا المحامي البارع الذي اقترح عليه سبيلاً لتخليصه من العيب والعار!

لقد استغلا ذاك الملف القديم الذي فتحته بنفسي لأهرب من نفسي.. باقتراح من دكتور حنان الذي كنت أتردد له معها لفترات طويلة، وكنت قد تعافيت من العمى ولكن لا يزال أثر الصدمة بداخلي من ما اكتشفته من واقع لا يمت لي بصلة، واقع كنت أحسبه شيئاً وهو شيء آخر، كنت أحتاج لبداية جديدة لأعود للدراسة لأعود للحياة، وكل الحكاية هو سؤال سألته للدكتور:

- كيف أتخلص من الماضي وأواصل الحياة؟

فطلب مني أن أفتح ملفّاً لي وآخذ موعداً مع موعد جديد ليتمكن من إعطائي الحق بالوقت والحديث والدواء.

بالفعل كنت أشعر براحة بعد كل زيارة وأحسب للموعد القادم فكثير من الأحداث حصلت والكثير من التطورات تحصل، كنت أحكيها للدكتور وأنا فرحة بما أنا عليه وكأني أزف له خبر نجاحه بكونه دكتوراً استطاع أن يخلصني من أزمة نفسية بسيطة حصلت..

ملف فتحته بنفسي وأنا من أدخل بياناته كاملة والآن يشهد هذا الملف على جنوني!

ليضاف إليه ورقات جديدة بتاريخ قديم، ورقة مدفوعة الثمن

لدكتور قبل الرشوة بحجة أنه يساعد على تخليصي وعلى نجاتي من الموت، ورقة كتبها ليبدأ عمر موتي الآخر، العمر الذي لا يحسبه أحد غيري فوحدي من شهد ولادة موتي ووحدي من يقرر موتي هذه المرة!

ورقة وملف

قررت بهما النيابة العامة نقلي للمصحة النفسية واستكمال القضية مع الشهود ومتابعة حالتي هناك بإرسال فريق طبي مختص للكشف وتأكيد صحة ما جاءت به الأوراق وذلك من خلال جلسات لا أحد بها سواي ولا أحد سيقرر جنوني سوى تلك اللجنة.

هكذا تتم صناعة المجانين!

اسمي ورد

بالعقد الثالث من عمري

يقال إني مريضة

التشخيص/ جنون الشك والارتياب

سأحكي لكم عن هذا المرض عندما أجد من يشرحه لي لأني ببساطة لا أعرف ماذا يعني جنون الشك والارتياب هذا

أسكن مع أسرتي أقصد أسرتي البديلة التي اختارها والدي لي وتمنى لي إقامة طيبة بها، لا أعرفها وأسعى أن أكون فرداً صالحاً بها فقط كي لا أصاب بكدمات بنهاية يومي ولا يُبزق على جبيني ولا أفقد خصلة من شعري

أفراد تمت صناعة جنونهم بطريقة فاخرة، كما تمت صناعتي أنا أيضاً.

أسكن بمنزل ليس بالكبير ولكنه يتسع لصراخنا ولركضنا وحتى لبكائنا.. تشاركني الغرفة ثلاث نسوة، أم خليل ومريم وشعاع لقد عرفت أسماءهن بصعوبة، فليس من السهل أن تسأل أحدهم ما اسمك ويجيبك دون أن يسبب لك أذى وكأن الاسم هو بداية عقدة موجعة لدى بعضهم..

لدينا مشرفة وربما هي حاضنة لا أعرف ولكنها من الجنسية الآسيوية تبدو لطيفة وهادئة ولكن تضرب بيد من حديد وتستعين أحياناً بقدمها للرفس وهذا ما يحصل بكل مرة عندما تأخذ مريم للاستحمام لتخرج هي مبتلة أيضاً.

لكل ثلاث حاضنات مشرفة واحدة عليهن لتراقب عملهن وتعاملهن.

مريم تضحك طوال النهار وتبكي ليلاً.. لا تتحدث معنا ولكن فجأة تقف أمامك لترقص وربما لتخبرك أنها تحبك!

وتقدم لك غصن شجرة وربما منديلاً وبعض الأحيان حذاء

وتجبرك على أخذه كوردة مقدمة منها، وما أن تأخذه حتى تركض لسريرها وتظل ترقبك من بعيد.. وردة فعلك تجاه هديتها هذه والويل لك كل الويل إذا لم تتظاهر بسعادتك وتشتم هذا الحذاء وتلوح لها من بعيد! وترسل لها قبلة أيضاً.

عرفت أن مريم تجاوزت عمر العنوسة بعد أن خذلها الحب والزواج أيضاً.. جربت كل شيء لتكون زوجة وحبيبة لكن كل الرجال الذين عرفتهم خذولها وجعلوها معلقة بالوهم لحين أن فاتها العمر وليس قطار الزواج.

فلا يوجد قطار للزواج يمر سريعاً من جانبك وعليك أن تحضن نعليك لصدرك وتركض لتتمكن من التعلق به والركوب وتبحث عن مقعد شاغر وبعد أن تجلس وتسحب أنفاسك أخيراً وتبتسم بما حظيت من الوقت والمقعد تتذكر أنك نسيت شيئاً بالمحطة.. لا تعرف ما هو ولكن شعور يظل يلازمك ويجعلك تدفع ثمن لهفتك وتسلقك هذا..

مريم لم تبحث سوى عن زوج ونسيت أن تبحث عن نفسها.. أن تكون قادرة على الحياة بدون نصف آخر.

أن تكون مكملة لذاتها ومكتفية بها فسعيها الدائم وعطاؤها وتعلقها بكل عابر سبيل دفعها للجنون فلقد تركت عقلها حيث لا تعرف ولا تستطيع العودة لتعيش بسلام

هي معنا الآن..

أنثى جميلة غادرت الحياة قبل أن تقرر هذا

لطالما حضنت غصن الشجر منها ولوحتُ لها وأعدها بالزواج أيضاً.. لقد كانت تقدم لي كل شيء وتبكي عندي كل ليلة لتسألني متى آتي لأخطبها من بيت أهلها.. كانت تخبرني أنها تنتظرني وتنام على وسادتي وتمسك بطرف ثوبي حتى لا أهرب وأفكر بالزواج من غيرها..

كان هذا حال مريم مع كل نزيلة جديدة للدار.. قالت لي شعاع

سوف تعتاد وجودك هي تحتاج لوقت.

شعاع

هذه الفتاة الممتلئة بالحكمة والفلسفة والمواعظ تقضي نصف نهارها تحدثك بكل المجالات وتأتي لك من الشعر بأجمله ومن الحديث بأروعه تمسك الكتاب مقلوباً أحياناً وتتظاهر أنها تقرأ..

كانت تسألني وبصوت هامس:

- إذا مات الإنسان فأين يذهب جسده؟

- للقبر

أجيبها

ثم تصفق لي وتردف سؤالاً آخر:

- وإذا كان جسده بالتراب فأين تذهب الروح؟

- للسماء

ما زلت أواصل بالإجابة

تعود لتنهي السؤال بسؤال آخر وأخير:

- إذا كان الجسد يذهب للتراب والروح للسماء إذاً فأين يذهب العقل؟!

أصمت أنا!

وتعود هي تسأل السؤال نفسه: (إذا كان الجسد يذهب للتراب والروح للسماء فـ أين يذهب العقل؟) لكل من يصادفها وحتى لو كانت نافذة الغرفة أو الجدار المواجه لسريرها أو الحضانة التي لم تكن تختلف كثيراً عن إجابة النافذة والجدار.

كنت أظن أن خلف عقل شعاع ورقة من دكتور بملف قديم مثلي.. وكنت دائماً أقول: لقد وجدت أخيراً من يصدقني هنا

كانت تستمع لي طويلاً وهي منصتة وما أن أنتهي من حديثي

حتى تقوم بالصراخ وتكسير كل شيء قابل للكسر.. لم يكن هنا شيء يستحق أن يكسر لكنها تفعل أي شيء لتثير الشغب لتجعل الحاضنة تغضب لتحظى أخيراً بكبل حديد وإبرة مهدئة يجعلانها تلازم سريرها ليوم كامل.

كانت تشير لي من بعيد بعد أن تهدأ وتسألني: أين يذهب العقل؟ ثم تطلب أن أفك قيدها وأن يدها تتألم.. كانت ترجوني هذا ولكن ما الذي يستطيع تخليص يديها الناعمتين من كبل حديد.. كنت أتحايل على الحضانة لفكها.. لكنها تخبرني أن هذا أمر المشرفة والتي تعرف حالتها جيداً..

فشعاع تعاني من اضطراب ثنائي القطب.. ذاك المرض الذي يجعلك بشخصيتين وتود الخلاص من إحداهما..

(لا أعلم كيف أنا على قيد الحياة الآن)

- أدوت أكيش

نعم لا أعلم كيف أنا على قيد الحياة الآن.. هذا ما قالته أدوت أكيش العارضة السودانية التي تستيقظ كل يوم وهي تبكي، تعاني من القلق والاكتئاب صرت أشاركها الحال وأشعر بها جيداً.

أصبحت لدي حاجة ماسة لأكتب.. لأكتب لي أولاً قبل أن أصاب بالجنون الفعلي قبل أن أتحول لدمية محشوة بالتهم وعليها أن تواجه كل هذا وهي لا تعي بعد ماهيتها وماذا تكون

أصبحت لا أجيد غير البكاء وأتقن فن الصمت ثم إني اشتقت لابنتي وعمتي اشتقت للأحياء الذين أشاطرهم الحياة والهواء ولا أستطيع لمسهم أو حتى محادثتهم

اشتقت للأموات..

لأمي التي نذرت عمرها وهي صابرة وتبتلع كل مصيبة حتى ماتت حزناً وكمداً.

لا أود أن تكون لي النهاية ذاتها لا أريد من الحزن أن ينال مني لهذا أنا أصرخ وأبكي، لا أحد هنا يستمع لي لا أحد يصدقني لا أحد قادرٌ على تخليصي..

أشتاق لعمتي التي لطالما صفعتني بعدم تصديقها لي..

أحتاج لها لأخبرها أني مجنونة وهي تنكر هذا لأصدقها أنا، أحتاج لغضبها الذي لازمني منذ طفولتي أحتاج لنزعة الكره التي أورثها لها الانتقام وجعلتها تنظر لنا جميعاً وكأننا نحمل وجه والدي الذي حرم عليها الحياة وجعلها قيد الحلم لا شيء آخر.

أحتاج للفترة التي شعرت فيها بالوحدة ووجدتني أمامها لتكون صديقة لي، لأقرر أن أكون ابنتها حتى وإن لم تسمح لي بهذا، أحتاج للتضحية التي جعلتني أترك وظيفتي وحلمي وأجالسها، ليس من السهل أن تجالس عجوزاً خرفة مريضة، لكن هي لم تخترِ الخرف وإنما القدر، الذي ساقه إليها، الخرف

بكل حكاياتها الفاضحة.

أحتاج للخرف وربما للحكايات التي تجعلني أستحق كل هذا وكل ما أعاني منه،

أحتاج إلى شخص قادر على البكاء دون أن يشار له بالجنون...

أحتاج فعليّاً لذاك الفريق الطبي الذي سأخبره بهدوء أني لست القاتلة، ولا يهم أن أكون مجنونة.. أحتاج أن أسألهم إذا مت فأين يذهب الجسد؟ ثم أصل للعقل لعلي أجد لديهم جواباً أنقله لشعاع وأكون قد حظيت بجواب طالما لم أحظَ بشيء آخر.. كالبراءة مثلاً!

قبل أن تقرر أنك مصاب بالاكتئاب النفسي والإحباط

تحقق أنك لم تكن محاطاً بالأغبياء..

- فرويد

لقد كنت محاطة بالأغبياء والمجانين أيضاً.. لهذا كيف عليّ أن أكون سليمة من الاكتئاب الذي أجد أنه بدأ يسكن أطرافي ينقر فوق مسامي يجعلني قابلة للتأكسد..

لم يسمح بالزيارة!

هذا ما حسبته عندما يجتمع الأهل مع مرضاهم وأبقى وحدي بالغرفة أنتظر من ينادي باسمي أو حتى يمسك يدي ليأخذني للبهو حيث الغرف الصغيرة التي تجمعنا مع أهلينا.. كنت لا أمانع أبداً لو ساقتني الحاضنة من يدي ولن أقول لها إلى أين، لم أنتظر أحداً بقدر ما تمنيت أن يسمعني أحد أن يستمع لأقوالي كشاهدة حقيقية على جريمة قتل وشاهدة على ولادة طفل زنى بيننا.

كنت أريد من المعني ذاته أن يفعلها، نعم من والدي.

كنت أريدها ساعة وربما تكفيني النصف لكنه ترك أمري كله بعد أن سلمني للمصحة هنا.. لا أعرف هل انشغل بموت عمتي أم بما هو أهم وهي القضية ومجرياتها، لا أعرف ماذا فعلت الأدلة الجنائية بعد تقرير الطب الشرعي الذي لم يسلم جثة عمتي إلا باليوم الثالث.. لقد دفنت باردة ولا أعلم إن كانت كاملة بعد تشريحهم لها..

كنت أريد أن أعرف ما حال وعد وحنان

كنت أريد أن أسأل عن كل شيء عن أي شيء يبعث بداخلي بصيص أمل أني على ذاكرة أحدهم وأني لم أمت ولم أصبْ بالجنون..

أخواتي التسع اللاتي جمعتني بهن غرفة واحدة وتشاركنا الوسادة والغطاء وحتى الأحلام..

من يخبرهن أنه تجمعني بهن علاقة دم ورحم وحكاية لم تنتهِ بعد.. كيف تتحول كل العلاقات إلى الرمادية ويغشى على كل الذكريات وتفوح رائحة الموت منها قبل أن تموت؟

كيف نخلق بداخلهم حب الأخت والأخ والتضحية والعائلة؟

كيف لهم أن يستشعروا هذا كله وهم يفرون عند أول لقاء؟

تسع أخوات لم أشعر بقرب واحدة منهن.. بعيداً عن حنان.. كانت جواهر سليطة اللسان وابنتها أمنية التي ولدتها بعد تخلي زوجها سعد وسفره للخارج..

سعد الذي عقد معها صفقة حب كاذبة من خلف السور وصدقتها هي، لينهي والدي هذه الأكذوبة بإجبار سعد على الزواج منها

يا لله ها أنا أسرد لكم حديثاً من الماضي قد قلته سابقاً..

لكن كنت أود أن أتجاوز كل شيء لأعرفكم بجواهر أختي التي لم يجمعني بها قط سوى حبنا المشترك لأمنية..

لقد كبرت الصغيرة كبرت وصارت فتاة بالغة جاءت مع أمها جواهر لمنزلنا منذ عام مضى ولم أعرفها وبالكاد صدقت أنها أمنية!

جاءت مرة ولم تكرر الزيارة بعد خروج جواهر باكية من غرفة والدي.. وكانت كعادة الوجع تشكو قلبها الذي ما عاد لها..

فما زالت تصر على وجودها مع سعد رغم تهميشه وطرده لها لكن الحب قادر على ذلك أحياناً بشرط أن تدلي له برقبتك!

قد قرأت مرة مقولة لا أذكر قائلها (إذا تعالى عليك شيء فأهنه بالتخلي).

يبدو أنه قانون ملزم للنفس وواجب لإكرامها.

بكل مرة تجيء يذكرها والدي بقرارها وفعلتها فتعود مهزومة مكسورة.

هذه المهزومة التي أمضت حياتها سليطة لسان وتبادل الشتائم والكره لكل من تعرف ومن لا تعرف.. تغيرت..

الزمن قادرٌ على هذا..

ها أنا أجلس أمام جواهر والتي جاءت لزيارتي أخيراً هنا بالمصحة النفسية.

جاءت ولم تكشف عن وجهها ولم تأتِ بأمنية معها.. عرفت أن الخوف من الفضيحة كان يلاحقها ولم تتغير كما حسبت ولكن هناك ما جعلها تأتي لتسمع لي وربما لتراني وربما لتسأل عن الرقم السري لصندوق عمتي.. وهذا بالفعل ما جاء بها!

فالطمع جعلها تفتش بحقيبة ميت لتبحث عن زجاجة عطر خالية لتحاول أن تضغط على رأس العطر لتحظى بشيء لا يدوم طويلاً سوى الألم الذي سببته لأصبعك وأنت تحاول أن تفعل هذا، وربما تبحث عن قطعة علك قد مضغها سابقاً..

التفتيش بغرفة ميت شعور يجلب لك الفزع حينما تجد كل شيء باقياً وهو رحل..

فكيف لها أن تسأل عن ذاك الصندوق الذي أراه لأعوام بخزانة عمتي ولم يتبادر لذهني ما إذا كان به رسائل قديمة وربما أشرطة لأغنية مات ملحنها وربما مجوهرات؟ مع معرفتنا السابقة التامة أن عمتي لا تملك شيئاً يستحق عناء أختي جواهر للمصحة النفسية لتعرف ما الرقم السري لهذا الصندوق!

كانت هناك فرصة للمقايضة... بأن تخبرني أولاً بكل مجريات الأمور وما حدث بعد انتقالي للمصحة وبالمقابل أخبرها بالرقم..

وبالفعل.. انطلت عليها حيلتي.

جواهر الثرثارة عادت لطبيعتها كنت أبحث من بين حديثها عن شيء أسد به فراغات أسنانها لتتوقف عن البصق بوجهي كلما قالت هيفاء..

عرفت أن الخادمة وهي الشاهد، تتعرض للتحقيق وبصفة مستمرة وأيضاً هيفاء وكل من يسكن بالبيت ومن يتردد لزيارته أيضاً..

ولكن ما توقفت عنده وطلبت منها الإعادة عندما تحدثت عن زيارة وعد بصحبة والدي لمركز الشرطة كشاهد آخر على جريمتي التي لم أفعلها!

ابنة التسع السنوات تحكي لهم الحادثة وكما أرادتها هيفاء، هنا شعرت بفراغ وكأن نافذة بهواء بارد فتحت بصدري وجعلت كل أطرافي ترتعش.. وقفت ليسقط الكرسي وأنهي اللقاء مع جواهر وهي تشد من دبر وتسألني عن الرقم.

وتنعتني بالمجنونة وألفاظ أخرى كانت تسابقني لتقف أمام وجهي وتقولها، لم أكن أسمع شيئاً ولكن أرى لسانها العريض وحركته ويدها تلوح بوجهي وعينيها الجاحظتين واللتين يكاد يسقط بؤبؤاهما من شدة تحديقهما.

لم أعرْها اهتماماً بالواقع كنت لا أعرف إلى أين أسير..

كنت قد فرحت بخبر سير التحقيقات التي بدأت تأخذ مجراها، وأنا أثق بالعدالة وأن بين كل المحققين سيكون هناك أحد بارع يكشف كم كانت هيفاء اللعينة حمقاء، وكم أن الخادمة خرقاء بتعاونها مع هيفاء بمقابل مالي بدأ ينفد منها.

فبكل موعد تحقيق تزيد هيفاء من المال لتعطيه ثمناً لسكوت الخادمة التي تطمع بكل مرة وصارت تهددها وتبتزها

أخيراً هناك من تخافه هيفاء، من استطاع أن يحول حياتها لجحيم، فشبح عمتي أصبح كابوساً سيدمرها يوماً وبالنهار تلتقي بالخادمة لتدفع لها المزيد ثمناً لسكوتها..

كل هذه الأخبار أبهجتني وماكنت أنوي أن أعطي مقابلها الرقم السري لصندوق عمتي لأني بالأصل لا أعرفه ولكن كنت

أتحايل على أختي جواهر لتخبرني بما لديها وبما سمعت!

عرفت كل ما أود معرفته إلا وعد التي جاء خبرها كرصاصة وجهت لقلبي وأنا أرى مُطلقها..

وصلت للغرفة بعد أن قررت انتهاء الزيارة مع الصفقة الخاسرة التي خرجت بها أختي جواهر.. انتهت الجلسة بخسارة أختي صفقتها لمعرفة الرقم السري لصندوق حديدي صغير تعود ملكيته لعجوز خرفة ماتت خنقاً..

وأنا انتهت الجلسة بخسارة آخر زهرة زرعتها بطينة روحي.. ابنة قلبي التي أرضعتها الحب والتضحية وسهرت عليها

مرضها الذي كان يمرضني فكلما بكت بكيت معها.. كنت أنام جالسة متدلية أكتافي بنعاسها وهي بين ذراعي تغط بنومها، كنت أخاف عليها من حلم يزعجها لقد حرست أحلامها، كانت تلك الهبة التي وهبني إياها الله ليعلمني الحمد والصبر لأعيش المتعة الحقيقية رغم صعوبة التجربة بتربيتها التي لا أعرف كيف تكون.

لقد جاهدت لتحظى بكل شيء.. لقد علمتها الصلاة.. وكيف تضم أكفها وتدعو ربها، كيف أن الكذب خطيئة وأنها تغضب الله، كانت تعرف أن فوق السماء جنة وأننا سنفوز بها جميعاً، كنت أتحدث لها كثيراً عن رحمة الله بنا. لم تكن طفلة عادية لأخبرها أن هناك عقاب وجهنم.. علقت قلبها بالصلاة والذكر لتحب الله لأنه الله، المحبة التي تجعلها تخاف غضبه، وأن وحده سبحانه من نخافه، ابنتي لا تكذب..

فكيف لها أن تكون شاهد عيان على جريمة لم ترتكبها ماما ورد؟

من علمها كيف تكذب؟ من حاول أن يلوث طينتها؟ أي غصن اغتص بحنجرتها ليجبرها على الكذب لتمثل مشهداً لم تشهده؟

من يعلم الأطفال كل هذا؟.. بالتأكيد هو الخوف الذي يحولهم كيفما يشاؤون وصغيرتي تخاف هيفاء..

أين فهد عن هذه اليتيمة.. أين هو عن هذه الأمانة.. كيف يسمح للعينة هيفاء أن تسيرها كيفما تشاء.. أقولها بصوت عال.. من أخذ ابنة قلبي؟ من علم صغيرتي الجفاء؟!..

وترد أم خليل التي تتكئ على كفها وتضم رجليها بعضهما لبعض ولم تتكلم منذ أن جئت للمكان.. لم أسمع لها صوتاً سوى شهيق قلبها آخر الليل وأول النهار..

- إنها الحياة

- إنه القدر

عرفت من المشرفة أن أم خليل لديها ثلاثة أولاد ذكور.. وبرحلة لها للحج مع زوجها وبعد أن انتهت من مناسك الحج كاملة والتي تكفل بها أبناؤها الثلاثة، فلقد كانت تحلم بزيارة بيت الله ولكن ضيق الحال والتسويف وانشغالها بتربيتهم كانت تحول دون تحقيق حلمها وإسقاط فرضها.. فجاء أبناؤها ليحققوا حلمها فكان أكبرهم بعمر الثلاثين وأصغرهم مراهقاً طري الروح لصيقاً بأمه التي تمنت لو كان معها.. لكن وداعهم كان الوداع الأخير.. الوداع الأبدي الذي ما حسبت يوماً أن يكون عادياً وغير جاد فرحلة الحج أيام وستعود والدتهم.

عادت ولم تجدهم.. فلقد فقدتهم جميعاً بحادث سيارة مؤلم.. عادت بالهدايا ومسابح حجر ملونة للتسبيح.. واكتفت بأن تعلقها على أسرتهم الخاوية.. وتهمس لكل وسادة: سيعود ابني ولن ينام هنا سينام على صدري وبحضني.

لقد غادروها دفعة واحدة.. ذهبوا وأخذوا ما تبقى منها.. لم تعد قادرة على النسيان ولا التخطي لم تكن تعرف أن الخلاص بالدعاء.. لقد بقيت صامتة الصمت الذي دفع ثمنه عقلها حيث غادرها وتبع أبناءها ليدفن معهم وتبقى عالقة جسداً بهذه

الحياة. جسداً ينتظر الموت.

ما عاد أحدهم يطيق ما يفعله المجنون حتى ولو كان صامتاً لا يؤذي.. أم خليل نزيلة قديمة يعرفها الجميع ولا يخافها أحد.

حتى إن المصحة قررت خروجها منذ عام لكن لم تجد من يستقبلها..

إنها الحياة يا سادة.

هناك شيء ما يحصل

شيء يجعل كل شيء معاكساً

شيء يجبرني على التغير.. أن أكون شخصاً آخر

أن نبدل بالحقيقة النوايا

وباللحظة.. التأجيل

وباللطف.. المحايلة

وبالوضوح الازدواجية.. هذا ما سيكون

لا مجال لأي خطأ آخر

لا مجال لأي احتمال

إن كنت تعرفني من قبل..

يسعدني أن تتعرف عليّ الآن..

ربما لن تعرفني فيما بعد..!

هُنا من الصعب أن تصل للعالم الخارجي.. ذاك العالم الذي فررنا منه دون إرادة.. وربما أهدى لنا الجنون وأقحمنا بما لا نريد لنكون حبيسي المكان نحمل هوية الجنون ومرضاً لا يشبهنا..

لا أنسى تحديق الدكتور أسامة الذي يجيء لزيارتي مع

الفريق الطبي الذي خصصته إدارة السجن بالتعاون مع النيابة العامة وقبل البت بالحكم لمعرفة ما إن كنت بالفعل أعاني من مرض جنون الارتياب والشك..

كنت قد سألت الدكتور أسامة:

- ما هو مرض جنون الارتياب والشك؟

ليجيب:

- هو ما تشعرين به الآن

أتحسس صدري وأجيب:

- لا أشعر بشيء

يبتسم

ليخبرني أن صاحب هذا المرض يتسم عادة بالأوهام واللاعقلانية وهي أفكار يعتنقها المريض ويؤمن إيماناً وثيقاً بتعرضه للاضطهاد أو المؤامرة ويفسر سلوك الآخرين تفسيراً يتفق مع هذا الاعتقاد، كمثل أن يظن أن الجميع يحيك ضده مؤامرة ليقذفوه بتهمة وتجنٍّ وأن الجميع يكرهونه وينوون الخلاص منه، ويظل يحاول جاهداً أن يثبت للجميع أنه على حق وهم على باطل.. يظل يبحث عن أدلة ويقسم لك على أشياء حدثت وشاهدها بنفسه.. وبالواقع لم يحدث هذا كله.

- يا ألله!

أقولها وأنا آخذ نفساً عميقاً لأزفره بوجع

كيف لهم أن يخترعوا مرضاً كهذا ليرموني هنا ويتخلصوا مني ويتبرؤوا من دم عمتي الذي لا يزال رطباً على أكف هيفاء..

جنون الارتياب والشك يا لحيلة دكتور حنان كيف استطاع أن يختار مرضاً يناسب مقاس جريمتهم ويطعنون بكل أقوالي.. كيف لبداهته أن يأتي بمرض كهذا بمجرد طلبه وكأنه يقف

بمطعم ليسأله أحدهم عن ماذا يشتهي ويعد له طبقه بدقائق دون أن يسأله إذا كان يعاني من التحسس من نوع أكل أو بهار يمكن أن يودي بحياته.. هو يعد الطبق ولا يهمه غير ما تدفعه له مقابل هذا الطلب الشهي.. واذهب للجحيم فيما بعد.. لا يهم هذا..

أين القسم الذي أقسم عليه بمهنة الطب أين كل حكاياتي التي قلتها له وأنا أنوي الخلاص وهو يعرف جيداً أنني بخير؟!...

ثم أسأل الدكتور أسامة عن مرضي الجديد الذي لا بد أن أصدقه الآن!

- هل تصدق أنت هذا؟

- أنا أصدقك.

يجيب وهو يبتسم أيضاً

كانوا بعد كل جلسة تحقيق وربما تشخيص ما عدت أفرق بينهما، يتشاورون بلغة درستها لكن ما زلت لا أفرق جيداً بين الكلمات ومعانيها ربما تقول لي أكرهك وأظن أنك تقول أحبك، بكلتا الحالتين سوف أعانقك عندما تقولها وأنت مبتسم.. هكذا يمكر الآخرون عندما يتحدثون باللغة الإنجليزية وأنت لا تتحدث بها.

كنت أثق أن الدكتور أسامة يصدقني ومتيقن من براءتي لولا أن بقية الفريق لا يزال يحتاج لوقت كي يصدق هذا..

وعند خروجي من عند الفريق الطبي الزائر.. أمسكت بيد الدكتور أسامة متوسلة له بكلمة واحدة:

- أريد الخلاص

- قريباً يا ورد

ثم يقلب يدي ليسألني عن تلك الندبات والبقع التي تملأ

كفي محدثة احمراراً واضحاً..

منذ متى هذه؟

يسألني الدكتور

وأجيب:

- أريد الخلاص..

ما كنت لأجيب أنني أنا من افتعلها.. كنت أحاول أن أثير شيئاً بداخلي، شيئاً يستدعي البكاء أنهش بأظافري وما كنت أحس بشيء يدفعني للنهش لم أشعر بتحسس أو حتى داعٍ.. لكن أرسم على يدي مستخدمة أظافري أرسم خطوطاً أخرى ليضخ بها دم آخر.. دم لا يحمل جيناتهم ولا حتى فصيلتهم.. كنت أريد أن أحدث جرحاً لأشاهد منظر الدم فقط.. الدم البارد..

لا شهية لرؤيته ولكن وكما قلت لأجد سبباً للبكاء.. لسبب أن أذهب للمشرفة المختصة لأخبرها أني مريضه وأحتاج لدكتور.. كنت أريد دكتوراً آخر غير الفريق المختص لفحص عقلي..

ومرة يزداد الدم ولا أفعل شيئاً فكل الحيل ما عادت تجدي

حتى التحسس انتشر بجسدي.. كنت أقول لمسامي لقد انتهت اللعبة توقفوا عن نقل الفايروس لكن لا فائدة.. أقدامي أيضاً صارت تشارك بلعبة الغباء هذه وصار جسدي مليئاً بالخطوط والبقع الحمراء

أحياناً ما نفعله بلحظة غضب يبقى طويلاً يذكرنا كم كنا حمقى.. وهذا ما حصل بالفعل

يترك يدي، ثم يفتح جهازه المحمول ويبدأ بتدوين أحداث هذه الجلسة أنظر لنقر أصابعه الخالية من أي احمرار ولا حتى ندبات فوق لوحة التحكم لأتذكر موظفة الاستقبال النحيلة التي

كانت تفعل الشيء ذاته وبنفس الخفة والثقة والتي لم ترد علي حتى السلام.. لقد سامحتها.. لقد تصالحت مع كل البشر إلا الذين أصروا على هذا.

تذكرت الجهاز المحمول الخاص بي والذي يبتلع كل كلماتي بزر الحذف لأنسى كل ما كتبت وكل ما أنوي كتابته.. لقد دسته حنان لي بالحقيبة التي أرسلها والدي للمصحة بعد انتقالي لها.. لقد وضعت حنان كل شيء حتى الذي لا حاجة لي به مثل جهاز المحمول الذي لم يكن صديقي منذ البداية

ولكن تدوين الدكتور هذه اللحظة جعلني بحاجة ماسة لفعل الشيء ذاته.. هي حاجتي للخلاص..

تذكرت مقولة قالتها لي شعاع نقلاً عن هنري ميلر: (من واجب الكاتب أن يكون أنانيّاً)

وها أنا أعلن أنانيتي

لقد قررت أن أكتب ولي أنا أولاً..

الساعة الرابعة عصراً

يسمح لنا بالتجوال بالحديقة الصغيرة نصافح الشمس والهواء..وزهر بلون البنفسج الذي كان منتشراً بكل مكان..

للمصحة مواعيد تجبرك على تناول الإفطار صباحاً.. لم أعتد على تناول وجبة الإفطار مبكراً، بالواقع لم يكن لي مواعيد محددة ربما أتناول وجبة الغداء مكرهة فقط لأشجع وعد لتأكل، وربما لا أتناول العشاء لأن عمتي أجبرتني على تناول كمية من البسكويت المالح وهي تظن أني طفلة لها اسم لم يمر علي من قبل لكن كثيراً ما كانت تتوهم هذا لتطعمني البسكويت وبكثرة أظن أنها كانت تتمنى أن تنجب فتاة بهذا الاسم،

لكن ما علاقة البسكويت المالح بالأمر..

لم يكن لي مواعيد وكنت أشكو الملل من روتينها ربما استجاب لي ربي حينما تمنيت التغير لروتين حياتي..

الحمد لله لقد تغير

أنا بمستشفى الأمراض النفسية ولهم روتين مختلف تماماً

أبتسم

بالواقع أكاد أختنق بالبكاء!

لقد تغير كل شيء فالساعة السابعة مساء تطفأ الأنوار وتغص كل أفواه المرضى بأدويتهم ليغطوا بنوم عميق وأدس أنا علاجي تحت وسادتي وأحياناً أطحنه تحت نعالي وأشرب الماء وأقول الحمد لله..

الحمد لله الذي جعل بيدي متناول الدواء ولم يكن بيد الحاضنة التي تدس العلاج بفم شعاع عندما تزم فمها لتبقى كبسولة العلاج تسبح بغرغرة بحنجرتها حتى تبتلعها بطبيعتها خوفاً من الاختناق.. وإذا عجزت عن هذا وأخرجتها فمصيرها مزيدٌ من الضرب..

الضرب ممنوع بنظام المصحة وإهانة الإنسان ممنوعة بنظام العالم أجمع.. لكن هناك دائماً يد تفعل ما يحلو لها دون رقابة ولا محاسبة. بكل ليلة كنت أغلق عيني مجبرة وأنا أسمع صراخ المريضات بدورات المياه وأنينهن فوق الأسرة.

لا أعرف كيف تبدو أحلامهن، كيف يحلم من فقد عقله هل سيكون بكامل قواه العقلية بحلمه؟ أم يقضي عمره بصحوه وحلمه وهو فاقد لعقله يركض ولا يعرف متى يصل، ومتى يخرج، ومتى يصافح تلك الحياة التي أودت به إلى هنا، كيف يُقابل كل أزماته ويتصالح معها ويعدها أنه سيتعاون مع نفسه بشرط أن لا تفقده عقله من جديد!

وربما يُعيد كل ترتيب حياته ويقتلع كل الأشخاص الذين لا

يستحقون ما حصل له، وكل الوجوه التي نسيته بعد أن أودت به للهلاك ولقد كانوا دائماً من يحرثون روحه لمثل هذا!

لا أحد يصدق شكوى المرضى هنا حتى العيادة التي تشرف على أوجاعهن كانت تجهز سبباً مقنعاً لأولياء أمور المرضى، تدعي سقوطهن أو أنهن هن من قمن بإيذاء أنفسهن بهذه الصورة

كل كدمة تصف مشهداً دراميّاً وكل جرح يحكي قصة مقص ومشرط وكل سن مكسور يشهد بلكمة وجهت له مباشرة..

من يصدق المجنونة عندما تشير بإصبعها تجاه الحاضنة الآسيوية لتقول: هذه من آذتني؟!

بكل مرة تتبدل الحاضنات وبكل مرة تعود المشكلة ذاتها وكأنهن جميعهن يحملن القلب ذاته.. سوف أخبر المشرفة عن هذا كله في صباح اليوم التالي.. أقولها لنفسي

وبالصباح أجبن!

أجمع من زهر البنفسج وأدسه تحت وسادتي هذا ما كنت أفعله بشجاعة

هناك أسباب لهذا الجُبن وهذا التردد.. أعرفها جيداً ولكن كيف تضع مبرراً لجُبنك ثم لا أحد يصدقك.. نحن لنا صوت آخر ويصدقه الجميع.. صوت أكثر تهذيباً،

أحاول أن أنام.. أن أجبر عيني على النوم لا على الأحلام.. بمهجع رقم ثمانية هناك صنبور ماء يحتاج للإصلاح، منذ أن دخلت للمصحة وأنا بكل ليلة أسمع صوت قطرات الماء تتساقط وبكل مرة أعد القطرات حتى أنعس وأنام كمثل من يعد الخراف فوق رأسه بمدبلج كرتوني.

هذه المرة قررت أن لا أعدها ولكن أن أذهب للمهجع المجاور لأغلقها بنفسي.. هذا المهجع خالٍ لا نزيلات به لا أعرف

السبب ولكن كلما وضعوا نزيلات جدداً اضطروا لإخلائه مرة أخرى.

خرجت أسير على أطراف أقدامي خشية أن تستفيق الحاضنة وتشعر بي ثم تكبل يدي كما تفعل مع من يسير ليلاً أثناء نومه.

المكان مظلم والممر الطويل به ضوء ينير ثانية وينطفئ لثوان. وكأنه يأخذ غفوة.. الرؤية غير واضحة لكني قادرة على رؤية خطواتي جيداً..

الباب مفتوح قليلاً والغرفة خالية ودورة المياه مشرعة بابها وهي بداخل المهجع فلكل مهجع دورة مياه خاصة به، تقدمت خطوات نحو الصنبور لأغلقه.. لقد كان الحوض قد أوشك على الامتلاء، وضعت يدي على صنبور الماء ألفه يميناً وألفه يساراً أحاول إحكام إغلاقه جيداً ليتوقف هذا الصوت الذي يربكني بكل ليلة.. وما أن أغلقته إلا وسمعت صوت صراخ خلفي مباشرة

هل تشعرون بما أشعر أم أحتاج المزيد من الكلمات لأصف لكم كيف أن تكون بغرفة خالية بها دورة مياه مهجورة وصنبور ماء وناهيك أنك بمصحة نفسية وتسمع صراخاً خلفك مباشرة..

- بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

أرددها وأنا أحضن نفسي ولقد تقوس ظهري وانحنى بمكانه وأغمضت عينيّ وكلي جُبن أن ألتفت وأرى من صرخ ولا يزال يصرخ بصوت حاد مخيف يقتلع القلب من حدته

ثم بكاء خافت وأنين..

ثم صوت أهازيج بدون كلمات فقط لحن من حنجرة مكلوم..

زحفت على ركبتي وأنا أنفث آخر نفس تبقى بصدري، أحاول

الهروب من المكان لأعود لسريري.. لكن هناك من أمسك بيدي وسحبني للأعلى لأقف، سحبني وأوقفني وكان لا بد أن أفتح عيني أواجه مصيري، لقد قلتها بنفسي هو جان لا بد أنه جان وأردد البسملة، البسملة فقط حتى قصار السور ضاعت وانفلتت مني..

فتحت عيني وإذا هي بشر مثلي.. فتاة ابنة ثلاثين عاماً ما كان بملامحها شيء يستدعي الخوف كانت تصك أسنانها وتفتح عينيها بقوة وتطلب مني أن أعيد الصنبور لوضعه ليبقى الحوض ممتلئاً بالماء.

رجعت بأكف مرتجفة خائفة أفتح الصنبور وفعلتها كما طلبت وهممت بالخروج مسرعة لكنها لحقت بي وأمسكت بيدي لتقول لي انتظري ستخرج الآن

عندما يتكلم معك مجنون أنصت له، إياك أن تهرب وإياك أن تخاف..

هو يتحدث لك ولن يؤذيك إن لم تفعلها أنت وتؤذِه،

وقفت وهي تقترب من الصنبور وتحدق بالحوض وتقول:

- يلا اطلع

يلا يا ماما

هي تنادي على صغير لها، لكن لا أعرف أي صغير تنتظر أن يأتي به صنبور ماء؟!

ولأني أجيد ربط الحكايات بفضل خرف عمتي، استطعت أن أفهم منها ومن عينيها الممتلئتين بالفاجعة والحزن،

أنها كانت حديثة الولادة لطفلها الأول، والذي رزقت به بعد سنوات من الانتظار.. وعندما كانت تهم بتغسيله وهي تمسكه بيدها فوق حوض المغسلة وهمت لتفتح صنبور الماء الذي ما كان يفتح بسهولة لعطل به، وعندما بذلت جهداً لفتحه مرة

أخرى، سقط منها رضيعها وانزلق من يديها للأرض مباشرة حيث فارق الحياة بعد أيام فقط.. وربما دُس بوجهه بالحوض العائم بالماء أثناء محاولتها لفتح الصنبور..هذا ما جعلها تفقد عقلها هي الأخرى لتقضي بقية عمرها أمام صنبور ماء خرب وتنتظر أن يأتي برضيعها الذي فقدته.

صوت الماء المقطر الذي كان يزعجني هو كان بمثابة أمل لشخص آخر.

تركت لها الصنبور والماء والمهجع وخرجت أحضن نفسي وأحمد ربي أن منحني كل هذه القوة لأمسك بعقلي حتى هذه اللحظة.

تمسكوا بعقولكم وحتى الفارغ منها، فالجنون عالم مخيف يجعلك تهيم على وجهك وتعيش حياة لا تعرفها ولا تشعر بها..

لهم الجنة بمشيئة الله.

يوم جديد آخر، خرجت ومعي جهازي المحمول جلست على عتبات الدرج الصغيرة والمؤدية لغرفة المشرفة.. لأنها الأكثر هدوءاً. كنت أنوي أن أخبرها بكل شيء بطريقة لا يسمعني بها أحد ولا تشي الجدران بما أقوله كنت سأخبر وزير الصحة بهذا سأخبر كل أهالي المرضى، بكل ما أشاهده بكل حكايات هذا المكان..

سأكتب

أظن أن الكتابة لها صوت مدوٍّ أحياناً وتفعل الشيء ذاته الذي تفعله الأسلحة النووية هي تقتل كل ما حولها لحظة انفجارها.. دون أن تترك لهم أثراً..

لا أنوي قتل أحد بالحرف.. ليس لدي حرف حاد لأغرسه بصدر أحدهم.

كان يسمح لنا بالكتابة والقراءة والرسم والخياطة وحتى الغناء والرقص ولكن بهدوء دون أن يدوي صراخ قلوبنا وهذا ما أحاول فعله الآن..

نحن لا نقرر التغير فجأة تجاه أحدهم..

المشاعر عملية تراكمية.. إهمالهم، صمتهم، جبنهم، تجاهلهم، جميعها تسقط بدواخلنا.. وعندما تحين اللحظة التي لم نتوقع أنها تحين..

تجد نفسك لا تطيق النظر لهم ولا تود سماعهم، وبودك لو أنك تركض مسرعاً باتجاه آخر..

من المؤسف أنك تكتشف مؤخراً أنك تمتلك من نفسك نصفها والنصف الآخر مهدور، لا تعرف أين أهدرته ولكنك متيقنٌ أنه لم يكن لك منذ البداية.

أشتهي أن أعود لنفسي

لورد التي كتبت أنا قبل كل شيء..

لذاتها التي جمعتها

وأشلائها المتناثرة فوق كل رف وعلى كل مرآة

أشتهي أن أمتلك نفسي كلها ولي الحق بها دون تدخل أحد

دون أن يقرر العالم أنني بنصف عقل ونصف جسد

لقد قررت أن أكتبني

أن أكون لي أولاً

ولن أنتظر من يقرؤني

عندما بدأت بالكتابة تذكرت الإيميل الذي وضعته لكم.. وما زلت أرجو أن يكون هناك رسالة واحدة من شخص لا أعرفه يقول لي إنني أصدقك.. وربما هناك من يقول أنا أحبك..

كان لا بد من وجود اتصال بالعالم الخارجي وبقوانين

المصحة لا وجود للإنترنت ولا لصفحات الأنستقرام وتويتر.. فكيف لمجنون أن يهتم بهذا.. أو يرسل تغريدة عن صباحه مثلاً ليقول:

أهلاً بكم أيها المجتمع العقلاني لا صباحك خير ولا خير بحياتكم..

افتعلوا الجنون فستعرفون الحياة حينها.

حملت بين يدي جهاز اللاب توب وتجرأت على الدخول لغرفة المشرفة.. الغرفة التي لم أجرؤ يوماً على المرور بجانبها حتى بزيارة الفريق الطبي..

كنت أعرف أنها شديدة ولا تعطي لك وقتاً ودائماً ما تغلق الباب عليها لساعات.. وتجلس عند بابها امرأة بدينة ولكنها خفيفة الروح مبتسمة تقدم الشاي وتحضر لها الأوراق وتتواصل مع الحارس عند البوابة الخارجية وتستقبل الأهالي الزائرين هي بمثابة سكرتير لم يعطَ شرف هذا اللفظ المهني الأنيق..

أشرت لها بنصف سبابة وأسألها إن كنت سأحظى بلقاء مع السيدة المشرفة..

- ممنوع يا بنتي

أحتاج اتصالاً.

أقولها بهدوء...

- لكم يوم مخصص تكلمون فيه أهاليكم

تبسمت متعجبة..

وأنا أردد بنفسي أني لا أحفظ أرقاماً ثم إنه لا أحد سيرد على اتصالي ثم ماذا لو كنت أريد أن أتصل بنفسي لأمنحها شرف هذه الدقائق.

أنا أريد أن أتصل بالعالم الخارجي لعلي أجد من يخبرني أنه ينتظرني!

تعجبت من طلبي ودخلت لغرفة السيدة المشرفة وهي تجر أرجلها المتورمة يبدو أن لأرجلها حكاية شاقة، رحلة مرض أو رحلة تعب بكل الأحوال أظنها مدللة بالسمنة فقط، وحوضها الذي يضاعف حجم جسدها بأكمله.. كانت تجد صعوبة بالمشي وأيضاً بالكلام وربما طلبي هذا ما جعلها تفكر كيف تنقله للمسؤولة!

كأن تقول لها مثلاً لدينا نزيلة مجنونة لديها إيميل وتريد اتصال إنترنت وربما صفحة بتويتر!

سيبدو غبيّاً طلبها.

بالخارج أنتظر خروجها وكانت نسبة رفضها تعلو نسبة قبولها للطلب.. تأخرت قليلاً وربما أنا أحسب هذا.. أتجول بالنظر على المكان وأقرأ كل اللوحات الموجودة، لم أجد درعاً تذكاريّاً يشهد للمكان بالكفاءة أو شهادة من الصحة تطلب منهم أن يعتنوا جيداً بالنظافة وإلا فسيغلقون المكان.. وتترك كل هذه العقول لتصافح الأرصفة والشوارع وتنام تحت كل شجرة وارفة الظل حنونٍ بأغصانها، وربما بداخل كرتون كبير لثلاجة بطول خمسة أقدام عند حاوية قمامة مليئة بالقطط، القطط التي تموء لك وكأنها تدعوك بلطف وتلقي عليك التحايا بهدوء لتشاركها المكان لا الطعام!

بالمناسبة يوجد قط هنا يحدق بوجهي ويموء الآن!

لن تصدقوا أني حظيت بساعة من الإنترنت المجاني بشرط أن أجلس على العتبات ذاتها وأنا أتصفح البريد الإلكتروني فقط لا غير وبشرط لا أرد على رسالة ولا أبعث لأحد رسالة أيضاً.

أشعر بالفرح والتوتر الآن..

بعد أعوام ها أنا أتمكن أخيراً من فتح الصندوق الإلكتروني الذي جاهدت لأعرف الرقم السري الذي يؤدي إليه!

كنت أصرخ للشاشه أنا ورد صالح ولكن لا تستجيب وتريد مني تعريفاً رقمياً أني هي.

كيف لرقم أن يحدد ماهيتك وشخصيتك ولا يسمح لك بدخول صفحة أنت أنشأتها إن نسيت رقماً واحداً؟.. كنت أكرر المحاولة وأنظر للمشرفة التي تكتف أياديها وتقف فوق رأسي مباشرة لتتحقق أني بالفعل أحظى بصندوق بريدي.

كنت سأطلب منها أن تكف عن هز قدمها بهذه الطريقة، توتري يزداد لولا أني تخيلتها أخيراً عمود كهرباء يتثاءب قُبيل الفجر أستند له ولا أعيره اهتماماً هو هنا فقط، لم أقصد أنها طويلة تجاهلوا هذا التشبيه على أية حال، ما زلت أحاول بكل مرة بالرقم لقد كتبت كل التواريخ من تاريخ الغزوات حتى تاريخ الصلح من تاريخ ميلادي حتى تخميني لتاريخ موتي ولم تجدِ.. ثم تذكرت أن له علاقة بي شخصيّاً بطريقة أخرى غير ميلادي الذي يعرفه الجميع ولم يشعلوا لي شمعة احتفال بهذا اليوم، ولكنه تاريخ لا ينسى وحدث لا يسقط من ذاكرة عمري..

كتبته وأنا أتنقل بين أرقام اللوحة بصعوبة لأبحث عن كل رقم وكل حرف.. لا أعرف من صنع لوحة التحكم، لمَ لم يجعل الأحرف بالتسلسل بعضها بجانب بعض؟ لمَ جعلها متباعدة وكأن سياسة الفراق تجري حتى على من لا يتنفس!

لا أصدق أن الصندوق البريدي رحب بي مؤخراً بعد قيام السيد/ باسورد بتقديمي له بطريقة صحيحة

يا ألله!

صرخت وأنا أضع يدي على رأسي

يا ألله

أقولها مرة أخرى وأنا أضحك بصوت عال صوت المنتصر

يدفع المشرفة الفضول لتجلس أخيراً بقرفصاء لتقترب فقط

من الجهاز وتتحقق من أن الرقم الذي تقرؤه ليس خيالاً وأنه بالفعل صحيحٌ، ما يقارب الخمسين ألف رسالة!

خمسون ألف صديق.. خمسون ألف إنسان يعرفني جيداً الآن وربما لن يغفر لي هذا الغياب، خمسون ألفاً من أرسلوا لي بعد أن قرؤوا لي.. أظن أنهم فعلوها وأن حكايتي يعرفها الجميع الآن.

لم أعرف بأي رسالة أبدأ كنت أمرّ عليها بعناوينها من الخارج فقط لأقرأ أسماء مرسليها. نهضت من جانبي المشرفة وتذكرني أنه تبقى عشرون دقيقة فقط لتطفئ الاتصال لم أعرها اهتماما فأنا مندهشة مما أرى.. ولكنها لكزتني بمؤخرتي بطرف حذائها لتثير وجعي وليس انتباهي

لا يهم..

لدي الكثير من الأصدقاء الآن..

أجاهد بالنظر للأسماء وللرسائل فعيني مغرورقة بدمعها وكلما مسحتها امتلأت من جديد.. شعور ربما يمر عليك نادراً لكنه لذيذ يجعلك تبتسم وتبكي بآن واحد..

هذه رسالة من فتاة من العراق أسمها تقول بها :

(لقد قرأت قصتك يا ورد ولقد تعلمت كيف أنهض من جديد شكراً لك!)

وأردد بنفسي:

الحمد لله لقد نهضت من جديد.. خذي بيدي معك لأنهض بعد سقوطي هذا.. حان وقت إسداء المعروف لأهله.

وهناك جميلة من الأمارات العربية أخبرتني برسالتها قائلة:

(هل أنت حقيقة يا ورد لقد بحثت عنك طويلاً)

أتحسس وجهي لأتحقق من أني حقيقة بالفعل ولم أتحول لتمثال شمع بعد.. الحمد لله

وأخرى تقول:

(أود أن أشكرك فلقد تعلمت منك الكثير..)

وأجيب:

وأنا تعلمت منك أيضاً.. لا أعرف ماذا ولكن رسالتك هذه أضافت لي شيئاً يعينني على البقاء.

وفتاة من الجزائر تقول:

(لقد أهديت قصتك لوالدي لقد تغير كثيراً)

لم أكمل رسالتها

إني أخاف تغير الآباء..

ورجل من لبنان بعث ليخبرني أن لديه ثلاث بنات ويحبهن جدّاً ويتمنى أن أكون بخير..

كنت أود أن أقترح عليه أن يكون لديه أربع بنات وأنا الرابعة... لا مانع أن أكون ابنة للجميع وأمّاً أيضاً.

وهذه رسالة تسألني وبشكل صارم (لماذا تزوج والدك من أخرى من أجل أنجاب ولد، من يكون محمد إذن؟!)

ليت قومي يعلمون يا جميلة!.

وهناك أم من وطني كانت رسالتها تقول: (لقد بكيت عندما عرفت أنني حامل بأنثى فأنا لدي خمس بنات ولم أرزق بولد ذكر لكن أحببتك وأحببت ابنتي الجديدة والتي سأسميها ورد)

هناك من يضعك دائماً بمأزق التفكير وتدعو الله ألا تكون هذه شتيمة منهم جراء ما فعله حرفي بهم.. أتمنى ألا تشبهني ورد وأن تكون لها حياة أجمل.. فليست كل ورد تحظى بحديقة لتزهر، هناك ورد يزهر من بين الصخر كما أنا..

هناك المئات من الرسائل هناك الكثير من يسأل عني.. هناك الكثير من ينتظر قصة نجاح أخرى هناك من ينتظر ملهمتهم

ورد.

كيف لي أن أخبرهم جميعاً أن الحزن علمني

والبكاء رباني

والوجع داواني

والألم فصيلة مني

والخيبة أختي

وكل الجدران أصدقائي

والقط صديق جديد ما عدت أخافه..

كيف أخبرهم أن ملهمتهم ورد قد اتُّهمت بالقتل والجنون بآن واحد قبل أن تأخذ شهيقاً وتنتظر زفيراً لتهمة أخرى، لقد ابتلعتهما جميعاً بقضية واحدة وتهمة واحدة، ولم تجد من يستمع لها.

تذكرت مقولة قرأتها لديفيد هربرت: ((من سوء الذوق أن يكون المرء حكيماً دائماً فهذا يشبه كونه في جنازة دائمة)).

لم أكن حكيمة بما يكفي لأكون ملهمة فأنا أيضاً أكره أن أكون بجنازة دائمة.. ثم إني أكره المتحدثين دائماً عن تطوير الذات والملهمين وأصحاب التجارب التي لا بد أن نتعلم منها..

أنا أومن أن التجربة الحقيقية هي التي تمر بها وليست التي تسمعها لتأتي وتحدثني عنها!

حدثني عن عمر وجعك وانكسارك وخيبتك وتعثرك وبكائك وسقوطك وحاجتك...؟!

حدثني كيف تجاوزت كل ما سبق وكيف أنت واقف أمامي الآن..

لتحدثني عن هذا دون أن ترجف شفتاك أو يهتز قلبك دون أن

تتحسس مكان وجعك وتقول كان هنا ألم وزال ولكني أشعر به كلما تحدثت عنه!

أخبرني أنك قادرٌ على التنفس بعمق وتزفر براحة دون أن تغتص حنجرتك بذكرى عالقة وكان من الصعب التخلص منها وربما كلفتك الكثير..

أكره من يتحدث عن شيء لم يجربه تجربة حقيقية تلك التجربة التي تدفعني لأصدقك، لتكون ملهماً بحق ولست تتسول الكتب لتقتص منها حكايات أناس وتأتي لتقولها لي بفم بارد يسقط الحديث منك سريعاً ولا تجيد حتى أن تعيد صياغته..

حدثني عن الألم الحقيقي لأصدقك..

وحده من مر بهذا كله هو قادرٌ على إقناعك أنّ كل حكاية تعثر خلفها روح تحاول أن تنهض من جديد.. خمسون ألف شخص ممتن لي لحكاية العمى! لنفسي التي حاولت أن أنهض بها وأكمل دراستي وأكون لها قبل كل شيء..

ماذا لو بدأت بالرد على كل رسائلكم بكلمة واحدة: أنا بخير وما زلت قادرة على الحياة من جديد.

ماذا لو كان الوقت يسمح لأخبركم أني ممتنة لكم وأني أخاف الآن أكثر من أي وقت مضى؟ كيف لي أن أنام وهناك خمسون ألفاً ويزيد يسألون عني بكل مرة وبنتظرون وجودي من جديد..

يؤسفني أن أخبركم أنه انتهى الوقت المحدد.

سأنقطع مرة أخرى لقد كان الاتصال شهيّاً ابتسمت وبكيت رغم كل شيء..

وأحسست بضرورة تلك الرسالة التي لا بد أن أكتبها معنونة بـ لي أنا أولاً..

هناك من سيصدقني

وربما هناك من سيقرؤني فقط

هي كتبت لي وربما ستبقى لي ولن يعرف بها أحد..

علمتني أمي أن الاعتذار للغير عن الخطأ (شجاعة)

والعودة للخطأ مرة أخرى (سهو)

وتكراره (لا يغتفر)

وعلمتني الحياة أن الاعتذار عن الخطأ بحق نفسك (واجب)

وجريمته (لا تغتفر)

وتكراره (موتة صغرى)

لقد أخطأت بحق نفسي يا أمي

كيف لي أن أسامحها

أحتاج أن أجلد ذاتي كلما تذكرت تفاصيل ما حدث!

على هامش الحياة هناك دائماً رجل يبكي..

ما الذي يجعل الرجال تبكي غير القهر؟ القهر الذي ينال منك لاحقاً ليجعلك غير قادر على الاتزان ولا الحياة.. تحاول جاهداً السعي خلف الحقيقة.. والحقيقة وحدها هي من تجعلك تبكي..

ثمة قانون في هذه الحياة أقر بوجوده الكثيرون، وضعته يد الله الحكيمة وجعلته وسيلتها الخفية في كشف الظلم والانتصاف للمظلوم..

لا جريمة كاملة حتى لو نفذت بأمهر الأيدي وخططت بأعلى درجات التخطيط!

فما بالك بجريمة نفذت بردة فعل مجنونة طائشة، وعلى يد امرأة رعناء هوجاء أعماها التسلط الأنانية وحب المال!

والدي رجل ذكي ولكن حبه لهيفاء التي أنجبت له الوريث قد أعماه عن كثير من الحقائق وجعله فريسة سهلة للأحاديث الملفقة..

اعتاد والدي على مراجعة كل الفواتير مع السائق.. فواتير المصاريف النثرية على المنزل واحتياجاته أو على السيارة من وقود وغيره..

وبالصدفة..

هل قلت الصدفة؟

أية صدفة؟

وهل للصدفة مكان في حياتنا؟

أم هي أساليب خفية حكيمة ينتهجها القدر!

صادفه أمام المنزل ينتظر خروج الخادمة ليعطي لها إيصالات حوالات بنكية تخصها، ظن والدي أنها فواتير تخصه من تلك اعتاد أن يراجعها كل نهاية أسبوع فأخذها منه رغم أن السائق وضح له أنها تخص الخادمة جمايكا..

- لا بأس سأوصلها لها أنا، هي بالداخل..

فوجئ والدي وهو يتصفح هذه الإيصالات أنها تفوق مرتب الخادمة بعدة أضعاف ووقع بحيرة كبيرة وثارت في نفسه التساؤلات:

من أين لها هذه المبالغ..

هل...

هي لا تخرج من البيت إلا لحاجة ومع السائق حصرا!

لا مجال ليظن بها السوء..

سأل السائق فأجاب أنه مستغرب بدوره ولكنه لا يملك أي جواب.. سألها نفسها..

لم تفلح المبررات التي قدمتها في إقناعه.

الأمر الذي جعل الشك يبلغ ذروته وجود إيصالين لا يفصل بينهما سوى عشرة إيام!

قرر والدي أن يلجأ إلى الأسلوب الآخر..

الصفعة الأولى بلا جواب!

والصفعة الأخرى ببكاء

والثالثة بصراخ..

لا أعرف كم صفعة احتاج ليجعل الخادمة تنطق أخيراً ولكنه استخدم في التحقيق الأسلوب والأكثر سهولة لاستجواب امرأة حمقاء..

لقد اعترفت أن هذه المبالغ هي من هيفاء..

- كذابه هيفاء ما تعطيك كل هذه الفلوس... وليش تعطيكي؟

يصرخ والدي ويهم بصفعة أقوى

- تصرخ ببكاء هي لتؤكد بالحلف أنها من هيفاء

يشدها من شعرها وينفضها نفضة أخرى ليجد جواباً آخر..

وبلغة عربية مكسرة تخبره أن هذه الأموال هي ثمن لسكوتها بالتحقيقات..

أحس أن رجليه لا تحملانه من هول الصدمة!

رمى بالخادمة أرضاً بعد أن تبين له أنها كانت شاهد زور بمقابل مادي في قضية قتل العمه زكية.

ثم انتفضت كل أطرافه وتوجه مسرعاً متعثراً بكل ذكرياته معي

ربما لاح له وجهي وبكائي وربما مكابل الحديد بيدي ليت ورقة جنوني التي استخرجها مؤخرا لاحت له أيضا..

أريد أن أعرف هل اصطدم بظلي الواقف على الدرج وهو يتلقى التهمة الأخيرة بنفس المكان.

أم تعثر بصراخي وأنا أقول له - هيفا.. والله هيفا...

لا أعرف كيف كان حال والدي لكن ما أعرفه جيداً أنه بدأ حديثه مع هيفاء بالضرب..

لم يضرب والدي بحياته..

ربما كان الصفع هو ما يستطيع فعله في حالة غضب كغضبه هذا!

لم تكن هيفاء بغباء الخادمة لتفرغ ما في جعبتها من صفعة واحدة أو حتى ثلاث..

لقد حاولت أن تقتل والدي بطريقتها فمن اعتاد أن يقتل مرة سيفعلها مرات..

لا يحتاج والدي لوسادة كبيرة لسد أنفاسه هي تحاول قتله بالكلمات لعل كلمة تلقي به أرضاً ويفارق الحياة..

- ليه قتلتي زكيه يا . . . ؟

يقولها والدي وهو يزفر وجعاً

- ماقتلتها . . بنتك ورد هي من قتلتها .

تجيب وبين أسنانها ألف مكر وتحت لسانها ألف ضغينة

- ليه تقتلي زكيه؟

يعيد والدي السؤال ذاته وهو يمسك برقبتها ويحشرها بزاوية ضيقه وكأن يهددها بالانتقام ذاته .

كان يحاول أن يستخرج منها إجابة شافية .

- ما قتلتها . .

ويتدفق من الأيمان أغلظها

يعاود بحيلة أخرى:

- ماتدرين يالـ . . ماتدرين أنهم كشفوا بصماتك على رقبتها؟ وتنطلي الحيلة على الحمقاء بوجود بصماتها . .

كيف لبصمات أن تترك أثرا بالجلد!

لكن الغباء يتفعل بوجود الخوف

بكت بخوف وكل ما فيها يرتجف وهي تقول:

- أنا سويت هذا علشان أحمي نفسي منها ومن بنتك

يلفظ والدي الكلمة الأولى بالطلاق

تنهار هي

وتحاول أن تتوسل

ويلفظ الأخرى:

- طالق

تصرخ وتتشبث به أن يحميها ويبقى بجانبها وأنها مظلومة

تماماً كسيناريو بمسلسل عربي تتوقع أحداثه وتسابقها، تأثرها بهذه المسلسلات جعلها تعيش حياتها كـ ساحة كبيرة في استوديو فاره يعطي لها حرية اختيار المشاهد والأدوار، وأنها ستنتهي من هذا كله بسهولة وربما بموت البطل.

كان الأجدر أن تطلب منه أن يحميها من مكرها وخبثها وجنونها وسعيها للمال الذي لم يتبقى منه شيء بعدما دفعت كل ما لديها ثمنا لسكوت الخادمة..

نفذ منها كل شيء وخسرت كل شيء وعندما وجدت أنها تقف على حافة الهاوية أرادت أن ترمي كل ما لديها لتقتل والدي حسرة وألما وحرقة:

- نعم أنا قتلتها

خنقتها

كانت تتوسل لي

كانت تنادي عليك

تقول صالح

وأنا أخنقها

آخر شيء كانت تناديك

كانت ترمي بهذه الكلمات تقولها وكان والدي يستمع لها وهو يضربها ووجهه مبتل بالدمع وأطرافه ترتعش وعيناه تتوقدان كالجمر..

ثم يصفعها فتسقط أرضاً وهي تكمل:

- أنا من اتهم ورد

أنا من سجنها وأنت من اتهمها بالجنون

ثم تتبعها بضحكة هيستيرية عالية..

ليركلها والدي بأقدامه وبلفظ المرة الثالثة

- طالق

يقولها بصراخ وبصوت يخرج من عمق وجعه.

تضحك هي وبصوت خافض توجه الطلقة القاتلة لقلب والدي

- محمد ماهو ولدك..

هذا ولد فهد

أنا كنت بحمي ولدي منهم أنا كنت بفرحك

تبكي وتضحك ثم تضرب وجهها مولولة.. ثم تعاود الضحك من جديد!

ينهار والدي يجثو على ركبتيه ليرد بصوت بحه الصراخ ليقول

- كيف؟

لا أتصور أنه سيقولها بهذا البرود ولا يسعني أن أسمعها بصراخ لأكتبها لكن هو سألها ولا أعرف أي إجابة ينتظر!

بالأحرى كان ينتظر أن تكون خدعة وينتهي المشهد.

وتكمل سرد خبثها وحقيقة ابنها وكيف أنها فعلت فعلتها هذه لتنجب له ذكرا بعد فشله المتكرر في الإنجاب

لم تكن تحكي.. بل كانت توجه طلقات نارية تخترق صدر والدي الممتلئ بالقهر والخيبة..

ويواصل والدي ضربه وبطريقة مجنونة.. لقد كادت أن تلفظ آخر أنفاسها لولا تدخل الخادمة والسائق الذي هرع من صراخ هيفاء..

لم تمت هيفاء!

ولم يرتكب والدي جريمة قتل بعد

هو ينتظر نتائج تحليل الحمض النووي الذي يثبت نسب هذا الطفل له يتعلق بذيل وهم أنها قالت ما قالته كي تقتله بغيظه

نعم هو وهم عاش بأحضانه مدة أربع أعوام.. وهم كبر ليتبخر سريعاً..

انتظار والدي هو بمثابة موت حقيقي..

لا أعرف كم تهمة تنتظر والدي.. ليس التهم التي يحاسب عليها القانون وإنما التهم التي يحاسبه عليها الضمير..

لقد جاء والدي لزيارتي أخيراً

ولقد كانت لدي الشجاعة الكافية لرفضها!

قبل زيارته هذه أرسل لي رسالة مطولة.. لم أصدق نفسي حينما جاءت بها المشرفة لتسلمني إياها لقد كانت مغلفة بإحكام ولم تكن أنيقة كما يجب كمثل أن تكون معطرة أو معها وردة تشاركني البهجة بالرسالة والموقعة بوالدك لقد فتحتها على مهل رغم أن قلبي كان ينبض بشدة.. لقد أخذتها لأقصى مكان لزاوية لا يمر بها أحد.. كنت أحتاج أي شيء من والدي تحديداً، لا أخفيكم أن الخوف كان يملؤني مما يراودني من التساؤلات عن محتوى الرسالة، هل هو خبر موت أو خبر حياة؟

ما الذي جعل والدي يقرر أخيراً الكتابة لي، ربما هو خبر لا يستطيع أن يتحدث به هاتفياً لهذا اختار الكتابة لي...

كانت ورقة تحكي كل ما حدث بتفاصيل لم تكن دقيقة بل كأنها عناوين لصحيفة لن يقرأها أحد، أشتم رائحة دمع والدي منها

أشعر بارتجاف أصابعه حينما كتبها..

لقد وجدت كل خيباته مكتوبة وكل وعوده التي لا أنتظر تحقيقها ولا الوفاء بها.

لقد ترك ورقة أخرى بيضاء وكتب بها كلمة واحدة

سامحيني...

لا أعرف لم زفرت دمعة الآن..

ليس لكلمة سامحيني ولكن كيف سيكون السماح..

وإن غفرت له من يغفر لي ولكل هذه الأيام التي تركت أثرها بوجهي وجسدي وروحي..

كيف نغفر لهم كل خطاياهم ونتجاوز كل ما سبق بمجرد كلمة سامحيني!

لقد سامحتك من قبل أن تطلب السماح يا والدي..

أدعو أن تغفر لك الأيام كل خطيئة وأن تبلل روحك بالرضى..

لقد سامحتك لدرجة أني رفضت مقابلتك التي جاءت متأخرة جداً..

جاءت محملة بوجعك وانكسارك كنت أريدها أن تأتي وأنت بشموخك وقوتك لأعلن لك براءتي لا انتصاري..

لقد رفضت الزيارة وبدأت بفصل آخر..

فصل تعلمت منه الكثير..

وجب عليّ كتابته..

لي أنا أولاً

(1)

قبل أن تواجه الحياة عليك أن تواجه نفسك تسألها لمَ الهروب؟

الهروب الذي يأتي على صورة إدمان لا تشعر به وإن كنت تفعله ولكنك تلاحظه على الآخرين..

هناك من يهرب للعمل الدائم دون انقطاع وكما يفعل والدي، وهناك من يهرب لمواقع التواصل يتنقل من حساب لآخر ولا فكاك، وهناك من يجد بالشاشة الصغيرة هروبه يدمن المسلسلات والأفلام وربما يعرف عن أبطالها أكثر من أي فرد يعيش معه، وهناك الهروب للأكل العاطفي وهو ما يجعلك تأكل حتى دون الشعور بالجوع ودون حاجتك للأكل تجد نفسك تقف بالمطبخ تعد طبقاً لك دون مقادير معروفة، وربما تلتهم وجبة سريعة تتعبك يوماً كاملاً لكن لا تشتكي فتعود تأكلها مرة أخرى وكأنها لم تؤذِك، هناك هروب موجع للعلاقات فكل علاقة تنتهي هي تبدأ مع شخص آخر.. مزيد من الألم مزيد من البحث.. مزيد من جلد الروح بالأغاني الحزينة بالبكاء عندما تفقد هذه العلاقة حتى وإن كنت أنت نفسك من افتعلها..

لم يكن لدي أي نوع من هذا الهروب وربما أمارس نوعاً آخر لا أشعر به..

عندما قررت مواجهة الألم، مواجهة الموت البطيء الذي أعيشه.. أنا على بعد خطوات من الموت أكاد أشتم رائحة القبر بكل صباح، كل ما أمر به قادرٌ إما على قتلي أو تحويلي بالفعل لمجنون قد تخلى عن عقله بأمر ورغبة من الغير..

أنا ربما أهرب للكتابة الآن كوسيلة للنجاة من الغرق.

أهرب لأحكي لنفسي الحقيقة كاملة والتي لا بد أن أنصت لها بكل جوارحي

فبعض الألم يحتاج أن تنفث عليه لا أن تمسه..

عندما تعرف جيداً موضع الألم وسببه، ليسهل علاجه..

بعض الألم يدفعك للجنون والشواهد هنا كثيرة وإن ذكرت لكم بعضها.. عندما تكون ضعيف الإيمان ضعيف القدرة ضعيف التحمل من السهل أن تفقد عقلك بأول كارثة روحية تحصل لك.

الكتابة ليست العلاج النهائي ولكن شعورك أنك تفعل شيئاً من أجلك يبدو هذا مطمئناً لك.. ويعطيك مزيداً من الأمل لتتقدم خطوة وإن كانت متعثرة.

(2)

لن أكون ضحية القهر النفسي..

ذاك القهر الذي يجعلني ألجأ لإعلال جسدي وتشويهه، يجعلني أنهض بكل صباح وأنا أضرب على صدري من الجهة اليسرى وأقول يا أالله ها هو ينبض من جديد!

القهر الذي جعلني أحك مسامات جلدي لتنزف دماً وأصنع حلقات من شعري بأصابعي وأشدها لتنقطع معي وأبكي ليس ألماً لأنه لم تنقطع الخصلة كاملة كما أردت.. لقد شددتها بقوة.. لقد توجع أصبعي.. لقد كان يتساقط شعري كمريضة يتدفق الكيماوي لجسدها كل يوم وتبكي لفقدان شعرها أكثر من أي شيء.. إلا أنني أرجوه أن يسقط وأفتعل هذا ولا أبكيه.

القهر النفسي الذي أصبحت قادرة على مواجهته وحدي.. لأني أومن أن الظرف والمصاب الذي أمر به مؤلم ولن يشعر به أحد غيري.. وحدي القادرة على تخطي هذا القهر بعد معونة الله..

صرت أستودع الله نفسي بكل ليلة.. وأحب صباحي.. حتى الوجبات التي تقدم لنا صرت أنتظرها.. أجتمع مع أم خليل وشعاع ومريم لنجلس معاً ونأكل وجبتنا دون أن تضطر الحاضنة لحشو الطعام بفم مريم.. كنت أنا من يناولها اللقمة لتضعها هي بفمها.. كان بالإمكان فعل هذا دون صراخ ودون ضرب..

صرت أتحدث مع أم خليل كثيراً وأصبحت أحظى ببعض الردود..

لقد تمنيت لو أن ابنها خليل لا يزال على قيد الحياة لأطلبه للزواج لقد كانت تحكي عنه وكأنه آخر رجل يحمل الفضيلة وآخر رجل بهذه المواصفات الملائكية، وربما هو آخر رجل

حظي بهذا الحب من أمه.

شعاع ومرض ثنائي القطب الذي بدأت تتعايش معه عندما أخبرتني أنها أخذت فقط شهادة بالحقوق بعد أن كانت تصر أنها أخذت شهادة بالحقوق والدكتوراه وأيضاً بالترجمة والآثار وكل هذا بعامين!

لم أكن لأكذبها فلقد سمعت عن أبطال السوشل الميديا الذين يجيدون كل شيء ولم يتهمهم أحد بالجنون ولا المرض،

فطبيعي أنها تجيد الشعر والخطابة والطبخ والاستشارات الأسرية ودكتورة بالأمراض الجلدية ومربية جيدة وتقدم نصائح بتربية الأطفال... وهي لم تنجب بعد.. تجيد الغوص ومصارعة الثيران أيضاً!

الآن هي تتكلم بهدوء أكثر ولا تصرخ بوجهي وتعترف بشهادة واحدة أقلها أمامي..

عندما حاولت أن أتخلص من القهر النفسي ما عدت أرى الوجوه كما كانت.. كل ما حولي بدا مسخراً لي بعد ما قررت التعايش معه.

(3)

واجه أقصى درجات الخوف..

لا خوف ولا رعب أكثر من كونك عاقلاً يعيش جنون من حوله بتعقل.. يحاول أن يتمسك بآخر ما لديه.. أن يلوذ برأسه بعيداً عن اتهاماتهم..

عرفت أن والدي لم يتخلَّ عني هو اتهمني بالجنون لينقذني من تهمة القتل العمد.. من المضحك أن تخاف على شخص لهذا الحد ولم تفكر أن تحتضنه يوماً، لقد دفع كثيراً للمحامي وللرشاوي ليمد لي حبلاً مهترئاً أمسك به بيد ترتجف ويحاول هو سحبي للخروج من هذا المكان.. لقد استطاع إخراجي من السجن مؤقتاً لكن يبدو أن الحبل انقطع لأسقط هنا ولأجل لا أعرفه..!

عندما يلاحقك العيب والعار تظل تركض لتلوذ بأي شق أمامك.

كان الشق الذي لاذ به والدي ضيقاً جيداً يكاد يخنقني وعندما حاولت الصراخ وضع يده على فمي وكتم أنفاسي.

كان لا بد لي أن أواجه خوفي وأنا هنا بهذا الظلام وهذا الشق الضيق من العالم.. لا أحد سيكترث لصراخك بمكان يصرخ به الجميع كتحية صباح وربما ضحك أحياناً..

بالفعل هذه أقصى درجات خوفي عندما قررت أن أكتب لي ولكم عنه.. عندما تحدثت به واعترفت به وعرفت أخيراً أين ألوذ بعمري.

(4)

تعرف على مخاوفك.. لتعرف أقرب طريق للخلاص

أول السطر كتبت لأخرج من هذه الدائرة:

- أنا قلقة..

- أشعر بتوتر

- لدي رغبة بالبكاء الدائم

- أنا عالقة بعنق زجاجة

كانت القائمة طويلة كنت أكتبها بصوت منخفض وليس كعادتي بصوت عال.. هنا الصوت عال هو/ اعتراف/ ولا تنسوا لدي فريق مختص ينتظر هذه الاعترافات ليدونها لديه، وما كنت أنوي قولها لهم.

الآن كتبتها لأعرفها، لأواجهها لأتخلص من الأسباب التي تشلني،

تشل تفكيري وتقيد أيامي..

أنا لا أخشى كلام الناس بقدر ما أخشى إلى أين يودي بنا.. الكلام قادر أن يفعل كل ما نحن به، يخلق لك بيئة لا تناسب ولكن خوفك هم من يجعلك مقيداً بها.. عندما تعلق بمنتصف الأشياء فلا أحد سيمد يده ليخرجك، وحتى إن طلبت المساعدة، فسيمر من جانبك الكثير ويلوح لك ويمضي.. وهناك من يتمنى لك سقوطاً ممتعاً، وعندما تبكي ستجد الكثير ممن يتجمهر حولك ويسألك عن سبب بكائك فقط ليعرفوا حكاية تُدس بجيوبهم وسيأتي يومٌ يشهرونها أمامك ككرت ضعف عندما تقول أنا لم أضعف يوماً..

ولكن أين من يشعر بغصتك وأنت تبوح.؟!

عندما تشعر بتوتر سيبتعد الجميع يخافون العدوى فالتوتر

عدوى ينتقل للطرف الآخر ويجعله يشعر بعدم الارتياح.. جرب أن تهز رجلك وأنت بمكان به كراسي مصطفة بعضها بجانب بعض وضيقة نوعاً ما.. هناك من سيضع يده على فخذك مباشرة ليوقفك دون أن يسألك ما الذي جعلك تفعلها وتهزها بهذا الشكل...!

شبح التوتر الذي يسكنني لمعرفة تفاصيل ما يحدث.. مجريات القضية وما آلت إليه؟.. بيتنا؟.. أسرتي ابنتي وأنا.. كل هذا يجعل قدمي تهتز طوال يومها ولم أجد هنا من يوقفها حتى... لهذا وجب عليّ أن أفعلها.. أن أكون تلك اليد التي توقف اهتزازها وأنا ذاك الشخص الذي يسألني عن السبب ويقول:

- الله معك.. الله يعلم.

كم هذا مطمئن..

(5)

إياك أن تقول سوف أتغير الآن وتفعلها ؟!

فالنفس البشرية ستقاوم هذا التغير المفاجئ

اخفض صوتك كما أفعل أنا الآن.. حتى وإن كنت خائفاً قلقاً وتشعر بالوجع دون مرض، تشعر بالفقد دون فقد، تشعر بالحزن دون سبب واضح، تشعر برغبة بالبكاء ولا تجد ذكرى قادرة على أن تجعلك تبكي..

قلها لنفسك كما أنا أفعلها الآن، كما أقولها لنفسي..

لي

أنا

أولاً

الـ (أولاً) هذه هي تشعرني بالراحة.. حتى قبل الأنا

عندما تجعلك بأولوية الحياة.. وأولوية الاعتراف.

عندما أعترف أن كل ما حصل لي هو قضاء وقدر.. ثم هو ظلم وجبروت.. هو تصرف خاطئ من أشخاص مقربين.. هو امتحان لي من الله لقوة صبري.. وامتحان من الحياة لقوة عقلي وهل أستطيع تحمل العيش مع مجانين.. الله لا يؤذينا..

أن تسكن معهم وتأكل معهم وتأخذ دواء لا يناسبك ولا تعرف إلى أين يؤول بك.. عندما تكتب بأصابع باردة وعين تصحرت وقلب ينبض بهدوء ويكاد لا يشعر بهذا النبض.

أن تنسى حكاية حب لأنها فقط خذلتك وتكتشف مؤخراً أنك لم تكن صالحاً لها من البداية.. تأخذ نفساً وكأن الأمر لا يعنيك..

عندما تصادق قطّاً يموء عندك جوعاً وتمسح على رأسه وتلقمه كلمة وربما قُبلة ليشعر بالشبع وينام..

عندما تتحول كل رغباتك العظيمة إلى رغبة واحدة تحاول أن تعرفها أن تتذكرها ولكن تجد أن لا رغبة عظيمة لديك الآن سوى نفسك..

عندما تكتب وتكتب.. وتتنقل بخفة أخيراً بلوحة تحكم تعرفت على كل أزرارها السوداء.. تكتب ولا تتعثر بخطأ إملائي وتتجاهل كل الخطوط الحمراء والزرقاء التي تخبرك أنك أخطأت، وعليك العودة لتصويبها.. لكنك تستمر بالكتابة بنفس واحد، برجاء واحد، بنبض واحد، بدمعة لم تسقط وفم لم يرتجف..

تكتب اعترافاتك وجنونك الذي تهرب منه تكتب جرائمهم وخبثهم..

تكتب عندما لم يسمعك أحد.. وتتجاوز أخيراً زر الحذف لتواجه كل ما سبق.. وتترك كل شيء كما هو.. تغلق لوحة التحكم وترفع رأسك للسماء تتنفس بعمق وصدرك ممتلئ بكلمة يا أالله وتنهض بروح خفيفة..

بروح تثق بربها مؤمنة بقضائه..

وتردد وأنت تبتسم أخيراً:

لي أنا أولاً

لقد فعلتها..

تم بحمد الله

لا أعرف كم عمر انتظاري ؟
ولكن أعرف تماماً أني ولدت مرة واحدة
ولن تفعلها أمي مرة أخرى ..

لك ما مضى من عمري
ولي الآتي ..

الجزء الثاني من رواية :

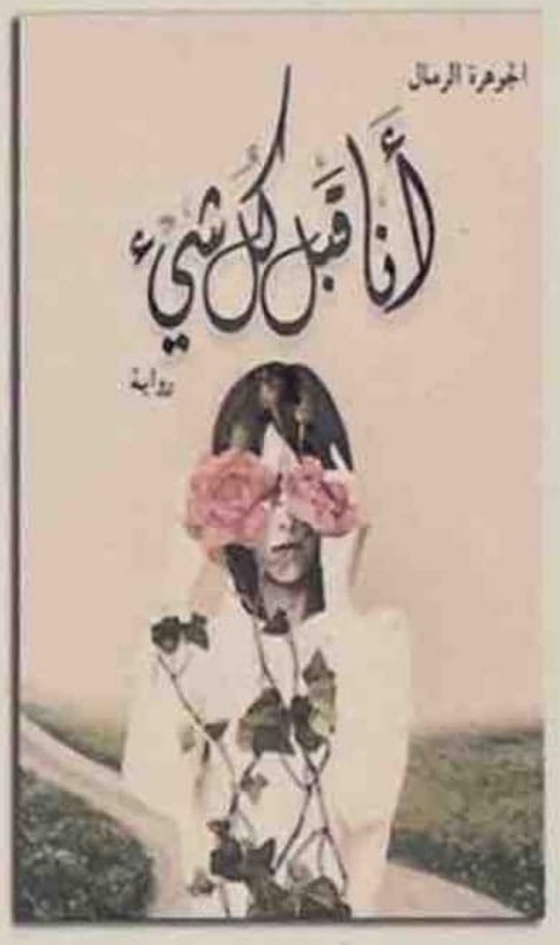

الجوهرة الرمال
joalremal
JO_ALREMAL
jo_alremal

t.me/twinkling4

adabarabic7
servicesbook1
services_book
www.adab-book.com
9786038270479